الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠١ — ١٠ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3me Année, No. 101. | Lundi-10-6-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٠ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة		
٩٢١	ذكرى المولد	: أحمد حسن الزيات
٩٢٣	ورقـــة ورد	: الأستاذ مصطفى صادق الرافعى
٩٢٥	فى الجبانة	: الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى
٩٢٧	لوكريسيا بورجيا	: الأستاذ محمد عبد الله عنان
٩٣٠	استدراك وتصويب	: أبو أسامة
٩٣١	البطـــل	: الأستاذ معروف الأرناءوط
٩٣٥	تطور الحبشة	: « كاتب مطلع »
٩٣٩	أبو العباس أحمد المقرى	: عبد الهادى الشرابى
٩٤١	النهضة التركية الأخيرة	: الدكتور عبد الوهاب عزام
٩٤٣	قصة المكروب	: الدكتور أحمد زكى
٩٤٥	مراجعات: السكر والمبرت	: اليوزباشى أحمد الطاهر
	مراجعات: التربية الخلقية والاجتماعية	: زكى شنوده جندى
٩٤٧	محمد (قصيدة)	: محمد البزم
٩٤٨	تأبين الـكاظمى «	: الأستاذ جميل صدقى الزهاوى
٩٤٩	أبو الطيب المتنبى «	: الأستاذ معروف الرصافى
٩٥٠	هيرو وليالدر (قصـــة)	: الأستاذ دريني خشبة
٩٥٤	الليالى العشر «	: ترجمة اليوزباشى أحمد الطاهر
٩٥٦	المرحوم حسن كامل الصباح	
٩٥٧	كتاب عن ستالين . جائزة الرينصانس	
٩٥٨	أبو بكر الصديق (كتاب)	
٩٥٩	الشاطئ المجهول «	: الأستاذ محمود الخفيف

ذكرى المـــولد

ذكرى مولد الرسول هى ذكرى قيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخُلُق ؛ فكأن مولده كان البعث الأول الذى طهر النفس وعمّر الدنيا وقرر الحق للانسان ، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب فى رق المادة ، وعبودية الشهوة ، وسلطان القوة ، فلم يكن للمثل الأعلى وجود فى ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر فى سعيه ، ولا للشعور الانسانى مجرى فى حسه ، ولا للسمو الالهى معنى فى نفسه ؛ إنما كان حيوانياً شهوته الغلب ، مادياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ؛ ثم أسرف فى البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وفى المادية حتى اتخذ إلهه من خشب أو حجر ، وفى الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر . فلما أتى النبى العربى فتح فى غارحراء ، باباً إلى السماء ، تنزّلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل ، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله . وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رتّت على

طول غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرّ علمها فى جهالته ؛ فتشوف إلى الأفق البعيـد ، واستشرف إلى السمت العالى ، وأرسل نظره وراء النظر النبوىّ من فوق الجبل ، فى صمت حِراء المفكر ، وفى سكون الوادى الملهـم ، وفى غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر فى الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى فى الوجود المطلق

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الانسان ، وأن يظهر الدّين أو تظهر الدنيا ، أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، وبين المصباح والمشكاة ، وبين الحياة الأولى والحيـاة الأخرى ، وبين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلٰهى من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدى لإرادة الله

* * *

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف فى عبودية عقليـة تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ؛ إنمـا هو طغيان عاسف يتحكم فى الفرد ويسيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهى بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدّين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوزاعٌ وهَمَل

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس فى الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقيرُ أن بيت المـال ثروته ، والوحيدُ أن المؤمنين جميعاً إخوته ؛ ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على علائقها إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الانصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه واسطة

يا رعى الله ذكراك المقدسة يا غار (ثور) ! لقد كنت مبعث الحرية ، كما كان غار (حراء) مبعث الروح ! فأنت فى جبل الخلاص وهو فى جبل التجلى ! !

* * *

وكان العالم قبـل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتقلب الأثرة وتحكم السفاهة ؛ فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المـال يجنى على الانسانية ، وسَورة الترف تعتدى على المروءة ؛ فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش ، تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة !! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليما لآداب النفس بالعمل ، وتنظيما لغرائز الحياة بالقدوة ؛ ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ، ونغلت بالعداء ، وعاشت على الفرقة ، فألّفهم على المودة ، وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ، ومدنوا العالم ، وهذبوا الناس

* * *

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول فى رَوْع المؤمن العَقُول الذاكر ! فليت شعرى ماذا يجد فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً كهمج الجاهليـة ؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام ، وطغيان الحكام ، وسلطان الجهالة ، فما أجدَرَ القلوب الواعية الحرة على اختـلاف منازعها ومشارعها أن تخشع اجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

احمد حسن الزيات

ورقــــة ورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها فى المعانى التى أفردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) ، وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب فرأينا ألا تنفرد بها ، وهى هذه : »

. . . كانت لها نفسٌ شاعرة ، من هذه النفوس العجيبةِ التى تأخذ الضدَّين بمعنىً واحدٍ أحياناً ؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحزِنَها وتستدعى غضبها ، ويُحزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغَ رضاها ، كأنْ ليس فى السرور ولا فى الحزن مَعانٍ من الأشياء ولكنْ من نفسها ومشيئتِها

وكان خيالُها مشبوباً ، يُلقى فى كلِّ شىء لَمَعانَ النور وانطفاءَه ؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألبسها الليلُ ، مُلِئت بأشيائها مبعثرةً مضيئةً خافتةً كالنجوم

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلُها أحياناً من بلاغة حِسِّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها ؛ ويجعلها فى بعض الأحيان من دِقةِ هذا الحسِّ واهتياجه كأنها بغير عقل

وهى ترى أسمى الفكرِ فى بعض أحوالها ألاّ يكونَ لها فكر ألبتة ؛ فتتركُ من أمورها أشياءَ للمصادفة ، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عُشاقها . على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحها وجسمها : فالذكاءُ فى عقلها فهم ، وفى روحها فِتنة ، وفى جسمها . . . خلاعة

وكنتُ أراها مَرِحةً مستطارة مما تطربُ وتتفاءل ، حتى لأحسبُها تودّ أن يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعدُ مُتضوِّرةً مهمومة تحزَنُ وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكونَ هماً ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلةً ظريفة ، قد تمت لها الصورةُ التى تخلق الحب ، والأسرارُ التى تبعث الفتنة ، والسحرُ الذى يُميِّز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميّز هى بوجهها الفاتن

* * *

وكان حبى إياها حريقاً من الحب . فَمَثِّلْ لعينيك جسماً تناوَلَ جِلدَه مَسٌّ من لهب ، فتسلَّع هذا الجلدُ هنا وهناك من سلْخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم . إنك إن تمثلتَ هذا الوصفَ ثم نقلتَه من الجلد إلى الدم — كان هو حريقَ ذلك الحبِّ فى دمى !

والحبُّ — إن كان حباً — لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حالٌ منه فى عذابه ، إلا وهى دليل على شىء منها فى جبروتها

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصيةِ المحب بشخصية محبوبه ، فيسقط العالمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين ، وينتفى الواقع الذى يجرى الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائق لا تأتى من شىء فى هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجىء منه ، ويُصبح هذا الكونُ العظيم كأنه إطارٌ فى عين مجنونٍ لا يحملُ شيئاً إلا الصورة التى جُنَّ بها !

وتالله لكأنَّ قانونَ الطبيعة يقضى ألاّ تحب المرأةُ رجلاً يسمى رجلاً ، وألا تكون جديرةً بحبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ فى الحرب . . . تلك الأهوال يُمثّلها الحيوانُ المتوحِّشُ عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم تَرِقُّ فى الانسانِ المتحضر فيمثّلها عملاً قلبياً بالحبّ

* * *

أحببتُها جُهْدَ الهوى حتى لا مَزيدَ فيه ولا مطمعَ فى مزيد ، ولكن أسرارَ فتنتها استمرَّت تتعدَّدُ فتدفعنى أن يكون حبى أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكنُ فى الحبِّ أشدُّ من هذا ؟

ولقد كنتُ فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسَه فى طريق السَّيل ففرَّ إلى رَبوةٍ عالية فى رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركانُ بجنونه وغلظته فهرب فى رقة الماء وحِلمه ؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حُرقتى بالهوى وارتماضى من الحبّ

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ فى العاشق

هى الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها . إذا استراح الناسُ جميعاً قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعاً قالت فى العاشق : إلا هذا . . . !

إذا برأتْ جراحُ الحياة كلُّها قالت: إلا جرحَ الحبّ . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدّمعةِ والدمعة ، قالت : إلاّ همَّ العشق . . . . !

إذا تغيرّ الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلاّ هو . . . . !

إذا انكشف سرُّ كلّ شىء ، قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحجّب بأسرار القلب . . . . !

* * *

ولما رأيتها أوّل مرةٍ ولَمسنى الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلستُ إليها أتأمّلُها وأحتسى من جمالها ذلك الضياءَ المُسْكِرَ الذى تُعَربدُ له الروحُ عربدةً كلها وقارٌ ظاهر ... فرأيتُنى يومئذٍ فى حالة كنَشْية الوحى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّارُ الملائكة يَعُبُّ ويجرى

وكنتُ ألقَى خواطرَ كثيرة ، جمَلَتْ كلَّ شىء منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياة قد فاضتْ وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىءٌ يمرُّ به إلاّ مسّتْه فجعلته حيّاً يرتمش ، حتى الكلمات

وشَعرتُ أوّلَ ما شعرْتُ أن الهواء الذى تتنفّسُ فيه يرقُّ رقّةَ نسيمِ السَّحَر ، كأنما انخدع بها فحَسِبَ وجهَها نورَ الفجر !

وأحسستُ فى المكان قوّةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتْنى مُبعْثَراً حولَ هذه الفتّانة ، كأنها محدودةٌ بى من كلّ جهة

وخُيّلَ إلىّ أن النواميس الطبيعية قد اختلّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ وأنا لذلك أعْظُمُ أمامها مرةً ، وأصغُر مرة

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورةٌ من الوجود النسائىّ الشاذّ ، وقع فيها تنقيحٌ إلٰهى لتُظهِر للدنيا كيف كان جمالُ حوّاء فى الجنة

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ، وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمَرَح ، لأن الله وَضَعه فى هذا السرورِ الحىّ المخلوق امرأة

والتمست فى محاسنها عيباً ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبهتها البدرَ طالعاً . . . ! »

* * *

ورأيتها تضحكُ الضّحِكَ المُسْتَحِى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . . . .

وتَبْسِم ابتساماتٍ تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !

ويَغْمُرُها ضَحِكُ العين والوجهِ والفمِ ، وضحكُ الجسمِ أيضاً باهتزازه وتَرَجْرُجه فى حركاتٍ كأنما يَبسِم بعضها ويُقَهْقِه بعضها . . .

وتُلقِى نظراتٍ جعل الله معها ذلك الاغضاءَ وذلك الحياء ، ليضعَ شيئاً من الوقاية فى هذه القوّةِ النّسويّة ، قوّةِ تدمير القلب

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها حتى لايتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ؛ وكأنه جسمٌ ملائكىٌّ ليس له إلا الجلالُ طوعاً أو كرهاً

جسم كالمعبد ، لا يَعرف مَنْ جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشع

وتُطالعُك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفهَم أبداً ؛ أىْ تريد الفهمَ الذى لاينتهى ؛ أىْ تطلب الحبّ الذى لاينقطع

وهى أبداً فى زينة حسنها كأنها عروسٌ فى معرِض جَلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعةً ، ولها هى كلُّ ساعة

* * *

أما طَرفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائف ، أنا خائف !

ووجهها تتَغَالبُ عليه الرزانة والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها

وهى مِثلُ الشعر ، تُطْرِبُ القلبَ بالألم الذى يوجَدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم

وهى مِثلُ الخمر ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرَقرِقاً فيها بكل إغرائه !

وكلما تناولت أمامى شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً ؛
أشياؤها لاتزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس
فيا كَبِداً طارت صُدُوعاً من الأسى . . . !

* * *

ورأيتُنى يومئذ فى حالة كغَشيَةِ الوحى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجرى

* * *

يا سِحْرَ الحب ! تركتني أرى وجهها من بَعدُ هو الوجهَ الذى تضحكُ به الدنيا وتعبسُ وتَتَغيظ وتَتَحامق أيضاً . . .

وجعلْتَني أرى تلك الابتسامةَ الجميلة هى أقوى حكومةٍ فى الأرض . . . . !

وجعلتني يا سحر الحب ؛ وجعلتني يا سحر الحب مجنوناً . . . !

(طبق الأصل) (طنطا)

فى الجبّانة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قالت لى أمى — رحمها الله — مرة :

« ألا تنوى أن تزور أباك فى هذا الموسم ؟ »

وكنا قد أوشكنا أن ندخل فى رجب ، وكانت حريصة على زيارة موتاها فى كل موسم ، بل فى كل خميس وجمعة ، لا تهمل منهم أحداً ، فتطوف بهم جميعاً وتقرأ لهم الفواتح ، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى « تفرّق » منها على قبورهم ، وكان ذلك يثقل علىّ ، ولكني كنت أكِلها إلى رأيها فيه ، إيثاراً لمرضاتها

فقلت — بلهجة من ضاق صدره — : « كيف أزوره وهو ميت وأنا حىّ ، وهو تحت الأرض وأنا فوقها ، فلا يسمع منى ولا يرانى ولا يحسني ؟ »

فقالت : « إنى أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها ، ولا أستحسن لك هذا » ولم تزد ، فأقصرتُ أنا أيضاً وقد شعرت أنى آلمتها بسخافتى وحماقتى ، وكرت الأيام ، فما يقف الدهر ، وماتت — كما يموت كل حى — فكان أوجع لى من موتها أنها ذهبت وهى موقنة أنى لن أزور قبرها ، وكأنما أردت أن أغالط نفسى فيما تحسه من الوخز والندم ، فجعلت أزورها من حين إلى حين ، ولكنى كنت أتسلل كاللص ، وأتخير أوقاتاً غير أوقات الزيارة المألوفة ، فلا يعلم بذلك أحد ، ولا يرانى مخلوق ، ثم كففت لأنى أنكرت هذا كله من نفسى ، وكبر علىّ أن أذهب إلى المقابر على رجلىّ ، وقلت لنفسى : « إذا كان المراد بالزيارة الذكر ، فانها به أبدا بين العين والقلب ، وإذا كان صحيحاً ما يقال من أن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء ، فانى لن أجنى ميتة جديدة على أمى ما دمت حيا »

ولم يفتر ندمى مع ذلك ، فظل دائراً فى نفسى ، فتشددت ، وحملت نفسى على مكروهها ، ومضيت إلى قبرها فى ليلة سوداء — أعنى مظلمة — وفتحت الباب ودخلت المقبرة وقلت « السلام عليكم » كأنما أردت أن أونس نفسى بصوتى فى هذه الوحشة ، فما راعنى إلا صوت يقول : « وعليكم السلام ! من تراك تكون ؟ »

فذعرت ، وهممت بالجرى ، ولكني استحييت ، فما يمكن أن يرد السلامَ غيرُ حىّ ، ولعله مسكين أوى إلى هذا المكان الموحش من الفاقة ، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك ! فما خوفى من رجل يقول : « وعليكم السلام » ؟؟ ولو كان امرأ سوء لاستخفى ، فتشجعت وأدرت عينى فى المكان فلم تأخذ شيئاً فى هذا السواد ، فقلت :

« من عساك تكون أنت يا صاحبى ؟ »

فقال الصوت : « وما سؤالك هذا ؟ لن تعرفنى على كل حال . فانى قديم — قديم ، ولكن تعال ساعدنى واحتقب شكرى »

فدنوت منه — أعنى من مصدر الصوت — وسألت : « على أى شىء تريد أن أساعدك ؟ »

قال : « على حمل هذا الحجر — فقد وهن عظمى جداً »

قلت : « ولماذا تريد أن تحمله ؟ دعه حيث هو ، فانه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها »

قال : « انك معذور »

قلت : « كيف ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال : « هذا قبرى . وهـذا من سُوَاه — عليه اسمى مكتوباً . . . تستطيع أن تقرأه إذا شئت »

فـكان من دواعى عجبى بعد ذلك انى لم أذعر ولم أولّ هارباً ، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال :

« لقد هجرنا جميعاً هذه المقبرة المهملة — لم يبق لنا فيها مقام . وكيف المقام فى قبور متهدمة ؟ ؟ لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا ، وكان أهلنا — الباقون منا على قيد الحياة — يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين ، فـكان نشرها يفوح ويتضوع ، فاذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها ، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا ونحس أن عظامنا قد طربت . أما الآن . . . ! ؟ لا يا صاحبى ، لم تعد هذه المقبرة صالحة للاقامة ! وقد هجرناها ، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره ، ورحلنا ، وكيف كان يسعنا غير ذلك ؟ انها لم تعد جبانة . . . . هـذه هى مساكن الأحياء أراها من مكانى هنا . . . فهل هذه مقبرة ؟ لقد زحف الناس بيناهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا ، وجاورونا ، فبالله كيف نطيق جوارهم ؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التى لا تنتهى ؟ ما عسى صبرنا على حركاتهم التى لا يعقبها سكون ؟ ؟ لـكأنا ما متنا ولا استرحنا إذن ! ؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنّا متنا . . . لا يا صاحبى ، لم تبق هذه الأرض للموتى ، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها . . . لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى مالم يكن لنا فى حساب . ومن لطف الله بنا أن هـذه البلاد قليلة المطر ، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور ، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج وننشرها بين أيدينا أو على هـذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس . وعلى ذكر ذلك أقول إنى لا أدرى ماذا جرى للدنيا ؟ لقد كانت حفيدة لى مدفونة هنا ، وكان عليها كفن من الحرير الغالى ، فسرقه لص ! تصور هـذا ؟ ولا أعلم هل سرقه واحـد من الأحياء ، أو تغفلتها ميتة أخرى وسرقته ؟ فان كان السارق من الموتى فلابد أن يكون من جيراننا فما فى أسرتنا هذا السوء . وقد شكت إلى ماصارت إليه من العرى ، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع ؟ وكيف أكسوها ؟ وخطر لى أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد ، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها ، فان الميت الجديد يلف فى أكثر مما يحتاج إليه ، ولـكنه لم يمت مع الأسف ، فلم أجد حيلة إلا أن أجملها دقة بدقة ، والبادى أظلم ، فذهبت أرتاد هـذه الجبانة حتى رأيت كفناً من الحرير لا أشك فى أنه الـكفن المسروق ، فجئتها بشق منه وتركت شقاً »

وضحك — أعنى أنه أخرج صوتاً سألته عنه لأنى حسبته كلاماً فقال إنه كان يضحك ، فسرت فى بدنى رعدة ، واستأذنته فى الانصراف

فقال : « ألا تعيننى ؟ إن الحجر ثقيل ، وأنا هرم ، وقد فتر نشاطى من طول الرقاد »

فتناولت الحجر من ناحيـة ، وتناوله من طرفه الآخر ، ووضعناه معاً على ظهره ، وذهب يخطو ، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشى ، فلما بلغ الباب سألته :

« ألم يبق هنا أحد منكم ؟ »

قال : « لا . . ماذا نصنع هنا ؟ كلا . ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا »

قلت : « وأين ذهبتم ، فقد نحب أن نزوركم »

قال : « أين ذهبنا ؟ وأين تنتظر أن نذهب ؟ انتشرنا فى فضاء الله ، فان أرضه ما زالت واسعة ، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء . . . وعلى ذكر ذلك أسألك : ألستم تموتون فى هذه الأيام ؟ »

قلت : « يا له من سؤال ؟ كيف لا نموت ؟ »

قال : لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون ؟ لماذا لا يكفيكم ما كان يكفينا ؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا ؟ »

فسألته : « وجلا عنها الموتى ؟ »

قال : « بالطبع ! وهل يمكن أن يحتملوا الناس ؟ إذن لماذا ماتوا ؟ »

قلت : « هل تفزعكم الحياة الى هذا الحد ؟ »

قال : « كما يفزعكم الموت — كلا . لا يطيق الحياة من نجا منها . . . والآن عم مساء يا صاحبى ! هل لك فى مرافقتى ؟ لا ؟ لا بأس ! لا بأس ! كل شىء مرهون بوقته . . . »

فلم أطق أكثر من ذلك ، وخرجت من الجبانة أعدو . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

٣ – لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الإحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وينكر بعض الباحثين المحدثين هذه الروايات المثيرة ، ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مغرقة لا تؤيدها أدلة مقنعة ؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورجيا فى مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة الى جانب أبيها وأخيها

ولكن الرأى الغالب يميل إلى الاتهام ؛ ويرى فى أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة مخزية أخرى تنسب الى لوكريسيا هى عشرة المحرم التى أشرنا اليها ؛ والتى تزعم أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة إخوتها

وإليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام . فى أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ، أصدر البابا اسكندر السادس مرسومين ما زالا يحفظان حتى اليوم فى محفوظات مودينا ؛ فى أولها يعلن البابا بأن ابنه شيزارى قد رزق غلاماً غير شرعى يدعى چوڤانى فى نحو الثالثة من عمره ، وأنه يبرئه من عيب هذا المولد غير الشرعى ، ويباركه ويعتبره ابناً شرعياً لولده شيزارى ، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية ، وينعم عليه بلقب دوق نبى ؛ وفى المرسوم الثانى يقرر البابا ، أنه وإن كان يبرئ هذا الغلام ويرفعه الى مرتبة الولد الشرعى ، فانه يقرر بأن عيب هذا المولد لا يرجع الى ولده شيزارى بل يرجع إليه هو (أى البابا) وسيدة حرة (من قيود الزواج) ، وإن كل ما يؤول اليه من الحقوق والمزايا طبقاً للمرسوم السابق يؤول اليه أيضاً بصفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزارى ؛ أو بعبارة أخرى يعترف البابا فى هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه

فمن هى أم هذا الطفل « الرومانى » ؟ ومن هى هذه السيدة الحرة ، حظية البابا أو حظية ولده شيزارى أو حظيتهما معاً ؟

يقول المؤرخ الكبير اميل جبهارت فى الرد على ذلك : إن مولد هذا الغلام الرومانى « چوڤانى » الذى تولت لوكريسيا فيما بعد ، حين غدت دوقة فيرارا تربيته ، باعتباره أخيها ، هو أشد مافى حياة اسكندر السادس وحياة شيزارى غموضاً وإبلاما . والواقع أن لوكريسيا قد وضعت فى سنة ١٤٩٨ ولدا يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل المرسومين البابويين ، وتوجد مراسيم أخرى فى محفوظات الڤاتيكان تنسب هذا الولد الى شيزارى . يقول جبهارت ، فهذا الاعتراف المزدوج بالابوة ، وهذا التناقض ، مما يسمح لنا بالاشارة الى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها

وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من ابنته لوكريسيا ، أو ولد شيزارى من أخته ؛ وأن ما كان ينسبه چان سفورزا الى زوجته عندئذ من أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة أخيها ، إنما هو حق صراح

بيد أن العلامة فونك برنتانو يعترض على هذا الايضاح بشدة ، ويقول إن بوركارت الذى يعنى فى مذكراته بكل ما يتصل بالفضائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشير الى مولد هذا الغلام بشىء ؛ وليس معقولا أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعى ينسب إليها فى بلاط زوجها دوق فيرارا ، وهو أمير رفيع الخلال والكرامة ؛ وكيف تفعل ذلك ، وقد تركت ولدها الشرعى رودريجو لعناية جده ؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر الشنائع كلها هم سفراء البندقية لدى الڤاتيكان ، وقد كانت مهمتهم الحقيقية أن يشهروا باسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها (١)

ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغلام إنما هو ولد البابا من خليلته چوليا فارنيسى ؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو بيروتو ، وقد عاقبه البابا بأن زجه الى ظلام السجن

وعلى أى حال ، فان فى هذه الروايات والشواهد كلها ، مايسبغ أشد الريب على خلال لوكريسيا بورجيا ؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة ، التى كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضة بالفتنة والغواية ، والتى كان جمالها الساحر يثير حولها ضراماً من الشهوات الخطرة ؛ وما يسبغ أشد الريب على علائقها بأبيها الحبر الفاسق الذى يسحق تحت قدميه كل مبادئ الأخلاق والحشمة ،

---

(١) برنتانو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٢ وما بعدها

وأخيها الطاغية الذى كانت الجريمة وسيلته الوحيدة الى كل غاية

***

ننتقل الآن الى صفحة جديدة فى حياة لوكريسيا بورجيا

لم يكد يزهق زوجها الثانى الفونسو دى بيزيليا ، حتى وضع مشروع جديد بزواجها . وكان المرشح هذه المرة الفونسو ديستى ولد دوق فيرارا وولى عهده ؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسية التى ما زالت تملى على اسكندر السادس وشيزارى تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة . وقد تردد الدوق وولده فى قبول هذه المصاهرة بادئ بدء لما يعلمانه من غدر البابا وولده ، وما توصم به لوكريسيا من شنيع التهم ؛ ولكن سفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ وبأنها ضحوك يغلب عليها المرح . وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنته مهراً قدره أربعون ألف دوقة ، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات ، وأن يخفض إتاوته للكنيسة الى أدنى حد . وتم العقد فى فيرارا فى أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ؛ وفى اليوم الخامس احتفل البابا باشهار زواج ابنته فى كنيسة القديس بطرس احتفالاً شائقاً

وفى أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستى أخو الزوج لينوب عنه فى استقدام زوجه ، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمآدب الباذخة والليالى الساطعة المرحة ؛ وفى السادس من يناير (سنة ١٥٠٢) أجريت مراسيم الوداع ؛ وغادرت لوكريسيا رومة فى ركب فخم من الأمراء والفرسان إلى وطنها الجديد فيرارا فوصلت اليها فى الثانى من فبراير بعد رحلة باهرة ، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم

وكان مقامها الجديد فى قصر قاتم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم فى رومة ، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة ، وعاشت فى هدوء وبساطة ، ولم تفقد شيئاً من مرحها وبهجتها ؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم اليها ، وكان زوجها الفونسو ديستى فتى متين الخلق والخلال ؛ كثير الخطورة والجد ، يؤثر الاهتمام بالشئون الحربية ، ولكن رقيق الشمائل وافر الثقافة ، يعشق الفن ويحميه ؛ وكانت لوكريسيا تعيش معه فى وفاق ، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها

بيد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزارى وأعماله ؛ وكان شيزارى يومئذ يخترق أواسط إيطاليا بجيشه ، ويمزق العدو والصديق معاً ، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة ، التى أثارت إعجاب مكيافيللى وجملته يعتبر شيزارى مثله الأعلى للأمير البارع — أن ينشئ مملكة رومانية كبرى ؛ وكانت لوكريسيا تقاسى فى عزلتها من التبعة المعنوية التى تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة

ثم نزل بها مصاب فادح ، ذلك أن ولدها رودريجو الذى كان يربى فى نابل فى أسرة أبيه ، توفى فى الثالثة من عمره (أغسطس سنة ١٥٠٢) فحزنت عليه أيما حزن ، وأثر الحزن فى هيكلها الدقيق ، فلزمت فراشها مدى حين وجداً وأسى ؛ ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه فى محنتها ما خفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها

وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا ، ويتهمونها بالقسوة والنذالة لأنها لم تعن بتربية ولدها بنفسها فى حين أنها عنيت بتربية « الطفل الرومانى » الذى أشرنا إلى قصته

وكانت لوكريسيا فى تلك الفترة تعنى بالقراءة ؛ ولم تلق فى فيرارا شيئاً من تلك الحفلات المرحة التى كانت كل حياتها فى الفاتيكان ، بيد أنها كانت قد عافت هذه الحياة الصاخبة ، وارتاحت إلى حياة العزلة والسكينة

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أباها اسكندر السادس ؛ وكانت وفاته فى ١٨ أغسطس سنة ١٥٠٣ فى سن الثالثة والسبعين

ويصف لنا المؤرخ جيشاردينو وقع وفاته فى رومة فيما يأتى : « هرعت رومة بأسرها ، وقد غمرها فرح لا يوصف ، إلى كنيسة القديس بطرس ، تتأمل ذلك الميت ؛ ذلك الشيطان الذى يضطرم طمعاً ويفيض غدراً ؛ ذلك الذى سممت قسوته الوحشية ، وفجوره المروع ، وجشعه ، وجرأته المثيرة فى ادارة الشؤون المدنية والدينية ، جو العالم كله »

ووقع النبأ كالصاعقة على لوكريسيا . ذلك أنها كانت تحب

أباها رغم كل رذائله وآثامه ، حباً جما ؛ وكانت تشعر بأن هـذا الحنان الفياض الذى كان يغدقه عليها دائماً ، هو ملاذ حياتها وعزها ، فغمرها الحزن مدى حين . ولـكن زوجها وأسرته استقبلا النبأ بارتياح ؛ ولم تر لوكريسيا أباها مذ غادرت رومة عقب زواجها ، لأن زوجها كان يأبى دائماً أن تزور رومة أو يزورها أبوها فى فيرارا .

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان الذى تبوأه آل بورجيا فى إيطاليا مدى ثلاثة عشر عاماً ، وكان نـكبة حقة لولده شيزارى . ذلك أن مشاريعه انهارت فى الغداة كما ينهار قصر أسس على الرمال بعد أن فقد ذلك العضد القوى الذى كان مصدر كل قوته وبطشه ؛ فالتجأ إلى جونزالفو دى كردوڤا قائد الجيوش الاسبانية فى نابل ، ولـكنه اعتقله وسلمه إلى ملك اسبانيا فرديناند الـكاثوليكى ؛ فزجه إلى السجن معتزماً أن يحاكمه على جرائمه التى أصابت كثيراً من أفراد أسرته ؛ ولـكن شيزارى استطاع أن يفر من سجنه بعـد خطوب جمة ، وأن يلتجئ إلى حميه ملك ناڤار ؛ وهنالك جرح فى إحدى المعارك ، وتوفى فى سـنة ١٥٠٧ ؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التى اتخذها الفيلسوف ماكياڤللى مادة لشرح كثير من آرائه فى خلال « الأمير » الأمثل

***

فى يناير سنة ١٥٠٥ توفى هرقل ديستى دوق فيرارا ، فخلفه ابنه الفونسو فى الحـكم ، وغدت لوكريسيا بورجيا دوقة فيرارا

وكانت فيرارا تجمع فى ذلك العهد طائفة من أكابر الـكتاب والشعراء والفنانين يظلهم الدوق برعايته ، أسوة بباقى القصور والعواصم الايطالية الزاهرة ؛ وكان ذلك السحر الذى تنفثه لوكريسيا أينما حلت يجذب إليها هـذه الصفوة ، فتجتمع حولها فى ذلك البلاط الزاهر ؛ وتشملهم الدوقة المستنيرة النابهة بعطفها وحمايتها

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شتروتسى وولده هرقل شتروتسى وهو شاعر أيضاً ، وانتونيو تبالديو ، وكالـكانينى ؛ ونيكوليو كوريجيو وهو من أعظم شعراء العصر ؛ وچاكوبو كافيشيو أسقف فيرارا ، وهو كاتب قاص ؛ ثم الشاعرين الفتيين لاريوستى وبيترو بمبو

وكانت هـذه الصفوة المفكرة تتغنى بسحر الدوقة الحسناء وتشيد بخلالها ومواهبها فى نثرها وشعرها، وتهدى إليها كتبها وقصائدها . ومما يذكر أن شتروتسى الشيخ وصفها فى بعض قصائده بأنها « مجمع عجائب الأرض والسماء كلها ، وليس يوجد لها نظير فى العالم كله »

وكانت لوكريسيا تبادلهم القريض أحياناً ، وتنظم باللاتينية قصائد ساحرة ، فتذكى بذلك إعجابهم وهممهم

بيد أن هذا الجو الأدبى الزاهر كانت تكدره سحب الريب والظنون ، وكان أشـد أولئك الشعراء تأثراً بسحر لوكريسيا بيترو بمبو ؛ وكان بمبو من سادة البندقيـة ، فتى جميلا ، بديع الخـلال والمواهب ، بارعاً فى التاريخ والشعر ، وكان من شعراء بلاط فيرارا ، ومن أخصاء الدوق ، يضطرم نحو الدوقة الحسناء إعجاباً وحباً ؛ وكان يوجه اليها كثيراً من الرسـائل والقصائد فى مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تلك القصيدة التى نظمها باللاتينية للاشادة بمعبودته

إلى لوكريسيا بورجيا

« أيتها الحسناء ، أنت أجمل من أوربا ، أنت ابنة ملك آجنور ، ولست مثل هيلانة الاسـبارطية التى اختطفها باريس التروادى ، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقريتك . وإذا قلت الشعر بالايطالية فأنت ابنة الأرض الايطالية ، وإذا تناولت القلم لتكتبى القريض بنفسك ، فانه لقريض يجدر بوحى الشاعر ؛ وإذا راق لك أن تهزى أوتار القيثارة ، فان أمواج نهر پو ترتجف فى مجراها سحراً من غنائك ، وإذا راق لك أن تستسلمى الى الرقص بقدمك الطائر ، فآه ! إنى لأخشى أن تلفتى نظر إلـه ما ، فيأتى لاختطافك من قصرك ، ويحملك الى السماء ، ويجعل منك أيتها الحسناء الرائعة ، إلـهة كوكب جديد »

كان بمبو يشعر نحو لوكريسيا بأكثر من الاعجاب والحب ، كان يشعر نحوها بهيام مبرح ؛ وكان هذا الهيام يبدو فى قصائده ورسائله مع شىء من التحفظ تمليه عليه الظروف واتقاء الريب . ذلك أن الفونسو ديستى كان أميراً صارماً عنيف الأهواء ، وكان يحب زوجه ، وإن لم تكن كل شىء فى حياته الغرامية ؛ وكان

يحيط الدوقة بسياج منيع من غيرته وصرامته ، ويرد العواطف المتوثبة الى سحرها وجمالها فى مهادها

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بمبو بمثله ، وأن علائقهما الغرامية اتصلت مدى حين أثناء اقامة الشاعر فى فيرارا حتى سنة ١٥٠٦ ؛ وقد كان طبيعياً أن يتفتح قلب لوكريسيا فى مثل هذه الظروف ؛ فقد كان الفونسو دبستى مشغولاً عن حب زوجه بمشاريعه السياسية والعسكرية ، وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه ؛ وكانت تبادله الرسائل ؛ ومازالت رسالة منها تحفظ فى مكتبة امبرواز بميلان ومعها خصلة من شعرها ، ذلك الشعر الذهبى الأشقر الذى كان يبث من حولها النور والسحر . وقد كانت نفحة الوداع . ذلك أن بمبو رأى أن يغادر فيرارا فجأة (سنة ١٥٠٦) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام ؛ وقد كان ذهابه نوعاً من الفرار ، ولعله كان اتقاء لريب الدوق وبطشه ، وربما رأى المحبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر

وقد لبث بمبو يكاتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاتها فى سنة ١٥١٩ . وهناك من يرى أن علائق لوكريسيا بالشاعر لم تتعد الصداقة الحميمة ، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفى

ولاريب أن بمبو كان فتى حريصاً فطناً حين خشى نقمة الدوق . ذلك أن زميله الشاعر الفتى شتروتسى وجد ذات يوم قتيلاً مخضباً بدمائه (يونيه سنة ١٥٠٨) . وطارت الاشاعة فى الحال بأنه ذهب ضحية لغيرة الدوق وبطشه ، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة ، ويشيد بجمالها فى شعره دون تحفظ . ولكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها فى تلك المأساة شأن ، وأن الدوق كان يهوى فتاة حسناء هى بربارة توريللى ، وقد تزوجت من شتروتسى ، فقرر الدوق موته لكى يزيله من طريق هواه

وعلى أى حال فان الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسى الحب الخفية التى وقعت يومئذ ببلاط فيرارا ؟

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

استدراك وتصويب

قرأت فى العدد ٩٩ من « الرسالة الغراء » مقال الأستاذ المغربى (بين الفقه الاسلامى والرومانى) فرأيته تلطف فى الرد على الخواجه ميشيل عند قوله :

« إن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً » وهى غلطة ظاهرة لا يسوغ لأحد أن يغتر بها ، لأن روايات أبى حنيفة على تشدده فى شروط الصحة لم تكن سبعة عشر حديثاً فحسب ، بل أحاديثه فى سبعة عشر جزءاً يسمى كل منها بمسند أبى حنيفة ، وقد خرجها جماعة من الحفاظ بأسانيدهم إلى الامام ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغ إليهم من الأحاديث التى يروبها ، وليس بين تلك الأجزاء جزء أصغر من سنن الامام الشافعى رواية الطحاوى ولا من مسند الشافعى رواية أبى العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الامام الشافعى . وقد عنى أهل العلم بتلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسماعاً ورواية ؛ فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى صاحب الكتب الجليلة فى السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن مشايخه ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها ، وذلك فى كتابه (عقد الجمان) . وكذا يرويها بطرق كثيرة محدث الديار الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى (الفهرست الأوسط) عن شيوخه سماعاً وقراءة ومشافهة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجيها ، وذانك الحافظان هما زينا القطرين فى القرن العاشر الهجرى ، وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة . وما تلك المسانيد والكتب ببعيدة عن متناول أهل العلم ، بل بعضها مطبوع فى الهند . . . إلى غير ذلك مما تراه مفصلا فى (شروط الأئمة الخمسة للحازمى المطبوع سنة ١٣٤٦)

أبو أسامة

هراقليوس في المعبد

البطـــل

للأستاذ معروف الارناءوط

كاتب « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

تتمة المنشور في العدد الماضي

كان معبد القديسة هيلانة غارقاً في الصمت ، فليس في نواحيه أثر من صلاة ، ولا تنير محارمه ومناسكه هذه الشموع الكثيرة التي تنير أروقة كنيسة القبر المقدس ؛ وقد جفاه المرتلون والمازفون ، فما يسمع هراقليوس في عزلته صوتاً يحرك في نفسه شعور التقى والورع ، بل ليس في هذا الرمس الذي انحدر اليه ، قسيس يطمئن الى لباسه أو يستريح الى إرشاده ونصحه ، ولو كان هنالك تقي لخف اليه وسأله أن ينزع نفسه بالعزاء الذي يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل وأقبل على الجُدُر يتجسسها ويتفحصها ويستند اليها ، وهو يحاول الخروج من المعبد ؛ وإنه ليمشي في لين ورفق حذر السقوط إذ صافحت عيناه نزلة أخرى صورة ذلك الأعمى ، فوقف ينظر اليها على ذلك النور الضعيف الذي يرسله القمر من صدوع في القبة الفيحاء ، فلما حدّق اليه ارتد به الخاطر في خفة الوميض الى حياة « موريس » التعس الذي سوّغ الظالم « فوكاس » قتله مع بنيه في ليلة من ليالى الخريف الحافزة . وقد كان « موريس » قيصر الرومان وسيد هذه الدنيا طولا وعرضاً ، فألّب « فوكاس » عليه الغوغاء وهاجمه وهو نائم في قصره ، ففر الى جزيرة « انتيغون » على الساحل الهادئ في بحر « مرمرا » ولحق به بنوه وصحبه ، فما تريّث الطاغية « فوكاس » في اللحاق به حتى أدركه وقتله شر قتلة بعد أن غمس يده في دماء بنيه الخمسة ، ولم يفلت من هذا الموت الكريه غير فتى صغير اسمه : « كريستيا » ، وغير فتاة صغـــيرة اسمها : « سافو » ومعهما تلك الأمبراطورة التعسة « تيوفانو » ، ثم ثار الشعب على « فوكاس » الذي لبس التاج ، وكان « هرقليوس » زعيم هذه الثورة وبطلها ، وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه الى قصر الطاغية اسم الصغير : « كريستيا » ، وكان ينبغي لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفّاح أن يضع على رأس الفتى تاج أبيه . فما فعل إرضاءً لمطامعه ونزواته ، ثم كان من أمر « كريستيا » أن توارى عن الناس خشية أن يفتك به أنصار هرقليوس ، وطويت الأحاديث عنه وما عاد رفاق أبيه يذكرون من أمره وأمر أخته وأمه شيئاً !

لقد كانت خيالةُ الفتى الأعمى في الصورة الماثلة تشبه خيالة كريستيا ، فهتف هرقليوس وهو ينظر اليها : « كريستيا ! كريستيا ! » ثم وضع يده على عينيه كأنما هو يحاذر ألا ينظر الى الصورة نزلةً أخرى ، ولكن الذكريات المؤلمة التي تعاورت نفسه في المعبد المقدس ، ظلت على عُنفوانها وعنفها ، فما كان يستطيع أن يُفلت منها ، ثم زحمته هذه الذكرُ الطاغية وانقلبت به الى تلك الليلة الصاردة التي ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب الى « نيكومديا » تحت الوَدْقِ المنهمر ، فذهبوا وبعد قليل عادوا ومعهم فتاة حسناء أحبها قيصر حتى شغفه حبها ، ثم جاءوا بضحيتهم الى القصر وألقوا بها الى سرير في غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حوائطها صور الصالحين والرسل !

لقد ناشدته تلك الفتاةُ انتصاراته لعله يستبقى عفافها فلا يدنّسه ، فلما لم تنجح في استمالته أو مضت بيدها الى صور الصالحين والرسل ، وسألته بحقّ هؤلاء ألا يعبث بطهارة فتاة يتيمة كان أبوها من أحسن المنافحين الذائدين عن حياض النصرانية ، فما أمالته ذكريات انتصاراته عن أهوائه ، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه ، فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكر فضل أبيها النبيغ البطل في تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته !

اسم هذه الفتاة « بليتزا » واسم أبيها الغطريف « تيوفان » ، ذكر هراقليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد ، ورأى إلى كوارث حياته كأنها تجتمع في حضيض البيعة الصغيرة ، فأدرك وهو الذكى الألمعى لماذا لم تستقبله الأماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التي لقيها في معابد الوثنية ، فصاح صيحة ألمة وخرج على شفتيه اسم « بليتزا » ، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن ! وراح الرجل الذي دخل بيت المقدس في حاشية من بطاريق

الجيش وبطاريق الكنيسة يغمس يده فى صدره ، فيمزق ثوبه القيصرى ويرى بدرره وذهبه الى حضيض المعبد ، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذى ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة :

بليترا ، بليترا !

كان هذا الاسم أول ألحان هراقليوس فى الأماكن الطاهرة ، ولكن هذا اللحن الشجىّ لم يلبث أن استحال إلى نواح مذيب ، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس العمدَ الرخامية ، ثم جلس على الأرض وواري عينيه حتى لا يرى الى هذه الصور !

ولما فتح عينيه وردد نظراته فى الجدار القائم إلى يساره أخذته صورة جديدة لم ينظر اليها من قبل فحدّق فيها على زهده فى الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال ندياً بذلك الاسم الذى ألقى به إلى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح ألم وارتد القهقرى مسفوعاً عانياً ، وأخذت الصورة التى أبصرها قائمة إلى يساره تتحرك وتهتز ، ثم جفت الجدار ومشى ناسها فى صف واحد إلى ناحية هراقليوس ، فكان كلما تراجع أمام أشباحها أخذته هذه الأشباح أخذ عزيز مقتدر ومنعته أن يشق طريقه !

فأى صورة هذه ؟ وكيف قدر لأشباحها أن تترك مكانها على الحائط لتمشى فى حضيض المعبد كما يمشى الناس ، وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة وإشراقها ما فى عيون الأحياء من وميض وإشراق !

ولما أوشكت هذه الطيوف الخرساء أن تزحمه حدق فيها عن كثب فاذا هى أربعة أشباح أحدها مشوه الخلقة ، محمرّ الصدر ، تضطرب فى وجهه عينان غائرتان وإلى جانب هذا الشبح ثلاث نساء ، فيهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شىء كثير من النعماء ، وكانت العمياء تلبس السواد ، وقد سدرت شعرها الأشقر على كتفيها وراحت تستند إلى ذراعى فتاة ما تزال حديثة عهد بالحياة ، فما قدر هراقليوس أن يتعرف إلى خيال المرأة الثالثة ، فصدف عنه وتهافت على العمياء ينظر اليها فى خوف وإشفاق ، وأخذ فمه يردد اسم « بليترا » بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة إلى الحوائط والجدر ، وبينما ملابس الأشباح قد حاكت فى حمرتها وصفرتها وزرقتها ألوان الفسيفساء التى أخذت تخطف على العمد والأقواس والقناطر ، ولقد خيل إلى هراقليوس أن الصورة التى خرجت من الحائط الشمالى ما عادت تمعن فى اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذى تولاه ، وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه إلى أنحاء المعبد وأدرك أن قيصر الرومان قد أفرط فى مخاوفه ، وما ينبغى له أن يفرق من صورة تراءت له على الرخام ، ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر إلى يده فاذا عليها ذلك الدم الذى تسايل من جبينه ، وللمرة الأولى أخذته عزة الزعيم الغطريف ، فأزرى بالشعور الذى رافقه فى مطافه ، وهو شعور يشعر به الدهماء ، ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء

وفيم هذا الخوف ؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضى ، وليس فى هذه الذكريات ما تنكره السلائق والشيم ؟ نعم ، لقد أحبّ فى مواضى أيامه امرأة اسمها « بليترا » ، وأحب القياصرة من قبل نساءً من الشعب ، ثم ماتوا ، ولم تقرضْ نفوسهم المخاوف ، وحيث قد أحبّ هراقليوس فتاة من بنات الشعب فأولى له أن يطمئن إلى هذا الحب ثم أولى له أن يطمئن إلى غده ، لأن « بليترا » التى أحبّ صارت فى الغابرين .

ولما رفعَ رأسهُ شامخاً مستكبراً ، وأنحى ناحية الباب يريد الافلات من هذه الهوّة الراعبة ، لحق به الأشباح فى صف واحد ، فما حفل بهذا المشهد ، وخُيل إليه أن اهتزاز الصورة ما كان غير وليد تصوراته وسبحه ، ولكن المرأة العمياء أدركته عند الباب وهتفت باسمه « هراقليوس ! »

وفى هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فمضض يده من جزع وإشفاق وسرى جَرْسُ العمياء إلى نفسه كالصليل ، فتلفت فاذا التى تصورها خيالا تقبض على يده فتناديه : هراقليوس ! هراقليوس ! انظر إلى وجهى ملياً وقل لى ماذا رأيت عليه ؟

وأخذت « بليترا » تجذبه إلى ناحيتها فشعر بحرارة أنفاسها ووقف ينظر إليها مبهوتاً حائراً ثم أطبق عينيه كأنما هو يريد ألا يرى إلى صورتها الشجية ، وظلت « بليترا » تستجيشه وتحركه وتذكره له الماضى حتى أفاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة صائحاً :

— بليترا ! بليترا ! قالت :

— نعم بليترا ، تلك الفتاة التى جئت بها من حجرتها فى

« نيكوميديا » إلى حجرتك فى القصر ورحت بها إلى سريرك ، فتوسلت إليك ألا تعبث بعفافها عن كثب من صور الصالحين والقديسين والرسل ! نعم أنا بليتزا ، ولست خيالا كما توهمت ، فاذا كنت لا تزال فى ريب من أمرى ، فهاك يدى فجسها ، ودونك صدرى فاستمع إلى وجيبه ، وقل بعد ذلك إذا كنت لا تزال تحلم أم أنك تؤمن بهذا الذى ترى !

لقد كان البرد الشديد ، وهذا الخوف الذى تولاه ، وذكريات الماضى التى تجددت فى نفسه ، وانبعاث بليتزا فى المكان النابى الملىء بأوجاع النصرانية وآلامها ، وهذه الأشباح التى رافقته فى مطافه ، كان هذا كله مثار أحزان جديدة فى نفسه ، فما عاد يستطيع أن يجنب عينيه النظر إلى رفاق بليتزا ، فرأى إلى « نفتالى » ثم إلى « بنيامينا » ثم إلى « مارية » ! وفتح فمه ليتكلم فما خرج لسانه على شفتيه ، فأومض بيديه كأنه يريد أن يسأل المرأة العامدة عن رفاقها ففطنت الى أمره وقالت له :

ــ هذه الصغيرة التى ترى هى ابنتى وقد أسميتها « مارية » تحبباً الى مريم والدة السيد المسيح ، ولقد تسألني عن أبيها ، ألا فاعلم يا مولاى أن أباها هو هذا الرجل الذى سالت نفسه على حوائط الكنيسة فى هذه الليلة القمراء ! واسمه هراقليوس ومكانه فى قصر «الشالسيه» عند شاطئ البحر الأزرق فى القسطنطينية !

فانطلق لسانه ساعة رنّ فى سمعه اسم مارية وانثنى صائحاً :

ــ ابنتى ! ابنتى ! فقالت العمياء :

ــ ابنتك وابنتى معاً ! . . . فقال :

ــ وهذا ؟ فصاحت العمياء :

تقدّم أيها السيد نفتالى وقل له أىّ رجل أنت ، واحسر له عن أمر هذه الفتاة التى هى ابنتك ، فتقدم ذو القروح من قيصر وكشف عن صدره صائحاً :

لعلّك أيها المولى الذى تفيّأ أعلام الحرب ، واستمع لأناشيد النصر من شواطئ أفريقية الى شواطئ البحر الزاخر فى بيزنطية ، لم تنس ذلك الرجل السرى الذى كان يجوب شطآن البحر الأحمر باسمك ، ثم يفيء الى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد ، وكنت فى جملة الذين أمالهم التُّقى والورع الى الصلاة ، وكان الناس يَرَوْنَ فى « نفتالى » وذلكم هو اسمى البغيض الكريه ، سيّد بلاد الجليل فى ثرائه وترفه ، فحسدنى الجميع ، وأخذتهم الغيرة من ذيوع أمرى ، فلما صليت مع المصلين راحت عيناى تنظران الى صورة للسيد الناصرى ، فألقيت إليها بنجوى القلب ، وسألت الرجل الذى طربت جبال الجليل لصوته أن يباركنى ، ثم رجعت الى منزلى لأمضى ليلة العيد حيال طفلتى وامرأتى ، وفى الصباح أحاط الجند بمنزلى وتبارى الناس فى سبى ولعنى ، ثم خرج بى الجند الى الميادين ، وقرئ على أمر قيصر باحراقى ، لأننى نظرت فى صلاتى الى صورة السيد ، ولأن هذه الصورة وجدت مطروحة على أديم المعبد ، ثم استبدل قيصر التحريق بالتغريب ، وألقى بى رجاله فى القفرة النائية بجوار البحر الميت ، وماتت امرأتى من الألم والغمّ ، وعاشت ابنتى عيشة لا تشرّف حياتها ! . . . هذا هو كل أمرى فما أظنك نسيت نفتالى ، ولا أراك نسيت « بنيامينا » ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكانى السحيق البعيد ، لأرى اليك وأسمعك دعاء وعيته وحفظته ، ثم علمته ابنتى لتجهر به أمام السيد الذى رد الى المحزونين والماحلين ما هم فى حاجة اليه من شباب وعافية ، وطلاقة وبشر . انظر يا مولاى الى ابنتى ! لقد كانت فى عفافها ونقائها كهذه الصورة التى تمثل السيّد فى طفولته ، فعبث بها رجالك ، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية ، فلما رجعوا الى مهدها رجعت اليهم سلائق الوثنية فقتلوا البرىء واضطهدوا البريئات !

ولما سكتَ « نفتالى » ، قالت « بليتزا » : « لقد حرمنى الألم والنفى والسهد ضياء عينىّ فما نعمت بالنظر إلى محيّا الطفلة التى انبثقت من دمى ، وعشت فى « عين كارم » عيشة راعبة لا تليق بمن كانت ابنةً لتيوفان البطل ! وكانت آلامى تنمو بجانب نموّ ابنتى حتى كرهت الحياة ومللت مقامى بين الأحياء ، ولكن صوت الطفلة التى أحببت جنبنى موتاً ما كنت أجد فى غيره راحةً لنفسى ، ثم نذرت لأمضين إلى المسيح فى مهده فأسمعه بثى ، فاذا لم يسمع انطلقت إلى لحده وأيقظت رفاته

وكنت عالمةً بوصولك الوشيك إلى الشام فرجعت أسأل عنك فاذا قيل لى إنك بلغت فى زحفك شواطئ الفرات ، حلّق وهمى فى فضاء النهر الزّاخر ، وطغت هواجسى ، فلمنتك وأسرفت

فى اللهن ، وإذا قيل لى إن قيصر وطىء البوادى سرب خيالى على الرمال وقذف فمى البغض والحقد وانى لأقسم لك أن بغضى فى احتدامه وثورته مقتبسٌ من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمى على الرمل فتذروه فى كلّ فضاء ! فاذا قيل لى إنك نزلت فى منازل عدوك عنـد المدن الوارفة الظلّ نزل بى شمورى حيث أنت ورفعت صوتى لأمنعك من غناء جندك الظافر ، وهكذا كنت أتبع ظلك وأرسم خطوك وأنا فى القرية المتواضعة فألحق بك إلى الأنهار والرمال وإلى المدن حتى أطلّ شبحك على المدينة المقدّسة وسمعت عزيف أبواقك ولم يفتنى صليل سلاحك فجفوت مكانى فى « عين كارم » وجئت « بيت لحم » فدعوت عليك ورافقت موكبك إلى كنيسة « القبر المقـدّس » ، ومازلت أرقب خطوك حتى خلت الـكنيسة من المصلّين والزائرين ، وحتى رأيتك تنحدر إلى محراب القديسة هيلانة فسبقتك إليـه ووقفت مع رفاق فى الألم والعذاب أنظر بعينيْ قلبى إلى نفسك السائلة على الحوائط والجدر ! هراقليوس ! هراقليوس ! كيف أنت ؟ كأننا لم نفترق وكأن الأيام لم تفصل بينى وبينك وكأن تلك الحجرة التى ازدانت بتصاوير الصالحين والرُسُل ، مازالت تحتوينا معاً ! ولـكن مصاير الناس تعاورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خلَتْ ذلك الرجل المزهوّ بانتصاراته ، وكانت « بليترا » التى فزعت إلى الناصرىّ فى الليلة الليلاء تنظر فى كثير من الزهو إلى مصرع ذكائك ! . . هراقليوس ! ناشدتك الله أن تقول لى كيف أنت ؟

***

لم يكن فى ميسور هراقليوس أن يرفع عينيه الى هذه الأطياف فلقد برّح الرعب به تبريحاً أليماً ، وأعمى يأسه وشجونه خيال بليترا ، وخيال ابنتها واستجاش جواه ذلك الصدر القريح الذى حسر نفتالى عنه ، فتقاصر وتصاغر وراح جاثياً على قدمىْ العمياء مستغفراً تائباً ، فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة ، فدلفت اليه وقالت : أبى ! أبى ! فما سمع نداءها الرقيق الشجى ، بل ظل يتخافت بصوته ، بينما كان نفتالى وبنيامينا يصلّيان فى زاوية المعبد صلاةً لم يخالطها كثير أو يسير من البغض ، وبينا مارية الصغيرة تنظر الى أبيها الدميع بعينين رحيمتين بريئتين

وكان ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة الى أرض المحراب ، فينير الصور التى على الحوائط والجدر . ثم ينثر أشعته الخفيفـة على وجوه الأربعة الذين أتموا نذورهم فى الليـلة الرهيبة التى أرادها هراقليوس خاتمة صومه وحجّه !

دَرَجَ قيصر تحت وقر هـــذه الصور القاتمة ، فأغفى على الحجارة ، وسبحت نفسه فى عالمٍ قصىٍّ بعيـدٍ ، فلما استوثق نفتالى من إغفاءته تلفت الى بليترا وقال لها : « لنذهب يا سيدتى قبل أن يستفيق ، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا ما نعمله فى الأماكن الطاهرة ! فقالت بليترا : « أترجع الى البحر الميت أيها السيد نفتالى ، قال : نعم سأرجع الى منفاى مع ابنتى ، قالت : فاذا أبصرك الحرس فماذا تقول ؟ فقال : لن يبصرنا الحرس ياسيدتى ، لأننا سنخرج من بابٍ خفىّ ، وما أكثر الأبواب الخفية فى هذه المحاريب ! فقالت : افعل ما تريد فعـله حماك الله ورعاك ! ثم نظرت الى هراقليوس النائم نظرةً راثية وألقت بنفسها بين ذراعىْ ابنتها هامسة : لقد عفوت ! . . . » فبرقت أسارير الصغيرة من الفرح وقالت :

ـ إن الله قد عفا يا أماه !

ولم يشأ نفتالى أن يكون فى معزلٍ عن هذه الرحمة التى خالجت قلبى الأمّ والبنت ، فأخذ بذراع ابنته وقال لبليترا :

ـ لقد عفوتُ ياسيدتى وعفت ابنتى !

وفى خفة البرق صمد الأربعة سُلّم المحراب فاستقبلتهم جميعاً سُدْفَةٌ فاحمة تغشى الـكنيسة الـكبرى !

دمشق — معروف الارناؤوط

تطور الحبشـــــة

لكاتب مطلع

الحبشة بلد المتناقضات إلى أقصى حد ، فهى تجمع بين مناخ المنطقة الاستوائية ومناخ جبال الألب ، وبين الخشونة والرقة ؛ وهى أفريقية الموقع ، ولكنها وليدة التقاليد العريقة التى تعاونت على إيجاد أوربا . والامبراطور يحمل فوق رأسه تاج سليمان ويحكم أقواماً حربيين يعيدون ذكرى رجال الأقطاع فى العصور الوسطى ، وفوق ذلك كانت الحبشة موطن قبائل الجالا أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، كما أنها غزت مصر قبل المسيح بثمانية قرون

ولقد ساعد اختلاف الجو وتراوح ارتفاع الأرض عن سطح البحر بين ٩٠٠ و ٤٠٠٠ متر على اختلاف الأجناس . ولعل هذا الاختلاف فى الأجناس كان السبب فى اطلاق العرب على هذه البلاد لفظ الحبشة ، ويعنون به (تعدد الأقوام) ، فان الواقع أنك تجد كل أنواع الأجناس البشرية فوق هذه الهضبة العالية المنفصلة عن العالم بأسوار شامخة وصحار سحيقة . والأحباش يتكونون فى الأصل من قبائل الجالا والصومال ، ثم كان نتيجة اكتظاظ القصور بالجوارى السود أن نشأ جنس ضارب إلى السواد . أما قبائل الوالوس فهم يهود يدعون أنهم من نسل أصحاب ملكة سبأ ومن التجار الذين كانوا يتاجرون أيام سليمان . وكل هؤلاء الأقوام يتكلمون لغات مختلفة تقرب من ستين لغة فصيحة ومائتى لغة دارجة . على أن أكثر اللغات تداولاً هى اللغة الأمهاريكية وهى لغة اليهود الأولى بعد اللغة العربية ، واللغة التيجرية [1] المسماة (لغة المسيحيين) ، أما اللغة الجيزية فهى اللغة الأدبية التى ترجمت إليها التوراة . على أن من يحسنها من أبناء الشعب لا يتعدى عدداً يسيراً . ويجب أن نفهم من هذا الاختلاف الظاهر تاريخ هذه الأمة التى استطاعت حتى الآن أن تحافظ على استقلالها بفضل استعدادها الحربى والمنافسات القائمة بين أعدائها

إن الأحباش على رغم اختلافهم يشتركون جميعاً فى الاستعداد الحربى الذى هم مدينون به لطبيعة بلادهم . فالجبل يخلق أجناساً أقوياء البنية ، ولقد روى مسيو مونفريد أنه كثيراً ما أرسل سعاة يحملون رسائل الى دير داؤوا حيث كان يسكن تشرشر ، وكانت المسافة ثمانين كيلو متراً خلال الجبل والوديان المحرقة (فكان الرجل يرحل عند الصباح حاملاً خطابه فى عصا مشقوقة ، ويعود بالجواب فى مساء اليوم التالى ، فكأنه قطع مسافة ١٦٠ كيلو متراً فى ست وثلاثين ساعة . وفى المرة الأولى كنت عظيم الدهشة والحيرة ، إذ بينما كنت أنتظر من الرجل أن يلهث أمامى من الأعياء إذا بى أراه بعد ساعة يشترك فى الرقص دون أن تظهر عليه دلائل التعب . ومما يبعث على العجب أن أولئك الرجال يقومون بهذه الرحلات الشاقة وطعامهم حفنة من القمح وسيقان من الذرة يقتلعونها أثناء الطريق ويأكلونها أثناء جريهم ، أما نساء بعض الأقاليم فهن يقطعن كل يومين مسافة ٣٥ أو ٤٠ كيلو متراً تقريباً حاملات على ظهورهن حملا يبلغ خمسين كيلو ، وذلك لقاء ثمانية أو عشرة قروش ، أو ما يعادل فرنكين وخمسين سنتيما تقريباً ، وعندما يعرض عليهن فى منتصف الطريق شراء ما يحملن بالثمن الذى سيبعن به فى دير الداؤوا يرفضن خشية أن يفقدن بذلك نصف قرش . وأولئك التاجرات اللواتى لا يتعبن هن اللواتى يصحبن الجنود فى غزواتهم ، فالجيش تمده ذخيرة من النساء فيسهلن له أكلاف الحياة الضرورية ، ويحملن أدوات المنازل المتنقلة . وحالة الجيش المعنوية تكون دائماً على جانب عظيم من القوة ، والجندى لا يعرف نظام المعسكرات ، وهو يحيا حياة كاملة الحرية ، فينزل فى أى مكان كأنه فى داره الخاصة ؛ والانجليز والطليان يعرفون بالتجربة القيمة الحربية للشعب الحبشى : يعرفها الانجليز منذ الاستيلاء على مجدلة واخلائها عام ١٨٦٨ ، ويعرفها الطليان منذ هزيمتهم فى دوجالى عام ١٨٨٧ ، وفى عدوه عام ١٨٩٦)

وعواطف هذا الشعب من نوع شجاعته أثناء العمل وأثناء القتال ، وهى ترجع الى تمسكه الشديد بالعوائد والمعتقدات ، وقد دخلت البلاد مع الديانة المسيحية منذ القرن الرابع . ويروى أن القس فيليب الذى كان من أوائل المبشرين المسيحيين هو الذى نصر رئيس خدم أميرة حبشية (ففتح بذلك فى الحبشة السبيل للديانة المسيحية) . ومن المعلوم أن القرن الخامس كان شديد الاضطراب بسبب المسائل الدينية ، إذ قامت المناقشات حول

(١) نسبة الى ولاية تيجرى

مريم إن كانت أمّ الله أو أمّ المسيح فقط . كما أن مجلس إفيز الديني طرد نسطورياس الذي دامت هرطقته وانتشرت حتى يومنا هذا . وفي نفس ذلك الوقت أعلنت عدة مجالس دينية على التوالي إيمانها أو إنكارها لطبيعة السيد المسيح الواحدة أو المزدوجة . وقد أعلن مجلس الـ ٤٥١ عداوته لفكرة طبيعة السيد المسيح الواحدة ، واستند الملعونون في قرارهم إلى الكنيسة المسيحية في مصر التي استطاعت خلال القرون أن تحافظ على استقلالها تحت اسم الكنيسة القبطية . والعلاقات بين مصر والحبشة ترجع إلى زمن بعيد مما كان سبباً في أن تصبح الكنيسة الحبشية فرعاً من الكنيسة القبطية في مصر ، فرئيس الكنيسة المسيحية في الحبشة الملقب بالأب (أب السلام) إنما يعينه بطريق الاسكندرية الذي يقيم في القاهرة ؛ ولقد فشلت محاولة البابوية ضم كنيسة الحبشة إليها . وقد تمكن البرتغاليون في أوائل القرن السادس عشر أثناء كفاحهم مع المسلمين في سبيل السيادة على طريق الهند من ارسال بعثة كاثوليكية ، ولكن سيطرة الجزويت لم تدم ، واستعادت الكنيسة القبطية في الحبشة علاقاتها مع بطريق الاسكندرية عام ١٦٣٣ . على أن حوادث جديدة قامت فدلت على أن السياسة لا تترك مطلقاً الفرصة لاستغلال العواطف الدينية مما أحدث تغييراً في أفكار البلاد الحبشية . إذ في ٢ يونيو من عام ١٩٢٩ استطاع أخيراً بطريق الاسكندرية بعد أجازة دامت ثلاثين شهراً أن يرسم الأب كيرول سيداروس ، وكان عليه في الوقت نفسه بالرغم منه أن يرسم خمسة أساقفة حبشيين ، فكان في هذا الحادث الذي لم يسبق له مثيل تحديد لتقدم الاتجاه القومي في الحبشة ، فتوترت العلاقات بين النجاشي والبطريق ، وكان الدليل على ذلك تلك الرحلة التي قام بها الأب الى الاسكندرية في مارس من عام ١٩٣١ ، وقيل يومئذ إنها لتمضية مدة النقاهة بعد الابلال من مرضه . وهناك حادث آخر عظيم الخطر هو زيادة نفوذ الفاتيكان ، فقد قامت محاولات منذ سنين طويلة لفصل أرتريا عن الكنيسة القبطية الحبشية . وبطريق الاسكندرية يواصل رسم القسس في هذه البلاد ، على الرغم من أن قسس أرتريا يستمدون الأوامر الدينية من رومة لا من أديس أبابا . ولا شك أن الدعاية الدينية تصحب التقدم الاقتصادي وتقويه

وللقسس حق التزوج مرة واحدة . وهم على العموم على جانب عظيم من الجهل . ومعلوماتهم لا تكاد تتعدى أمور العبادة ، وللقسيسين والرهبان سلطان عظيم على الجماهير الجاهلة التي كان يحتم عليها سلطانها المدني الذي نالته منذ القرن الثالث عشر الدفاعَ عن حقوقها ومصالحها . ولقد أصبح رئيس الأديرة الأكبر — وكانت مهمته في البداية التفتيش على الأديرة — الرئيس الحكومي للأب والكنيسة . والأب يكون دائماً أجنبياً يعينه بطريق الاسكندرية ، ورئيس الأديرة الأكبر يكون دائماً حبشياً تعينه السلطة المدنية . وسلطان رجال الدين شديد النفوذ عظيم القوة ، حتى أنهم يمتلكون جزءاً كبيراً من الأرض المزروعة وقرى بأكملها ، وعلى حسب العرف الجاري في البلاد ينال المالك خمس محصول الأرض ، ومن ذلك يستطيع المرء أن يتصور المعارضة التي يصادفها مشروع يرمي إلى تغيير نظام مضت عليه أجيال طويلة . وكل حياة الأحباش تقوم على الايمان بالمعجزات وتقديس القديسين والملائكة وعلى الفرائض الدينية : كالاعتراف بالخطايا والصيام القاسي والغفران ، والحج الى بيت المقدس واجب يُكفّر عن الذنوب . وقد أخذت الديانتان المسيحية والوثنية يؤثر تدريجياً بعضهما في بعض ، فديانة قبائل الجالا الأفريقية الأصل قد تأثرت بالمسيحية . ومع ذلك فقد تأثرت أيضاً الديانة المسيحية القبطية بالخرافات والسحر ، وقد امتزج الايمان بآله ابراهيم والمسيح بضروب الايمان التي كانت شائعة قبل التاريخ ، كتعظيم الماء والأمواج والغابات والأشجار المقدسة والشمس ، وفي الوقت الحاضر يتقدم الدين الاسلامي في الحبشة كما يتقدم في كثير من البلاد الأفريقية

وهكذا نرى الحبشة تبدو حكومة من حكومات القرون الوسطى التي كان يحكمها الكهنة نيابة عن الله . فهناك لا يمكن أن يحدث شيء لا يريده رجال الدين ، والحاكم الذي يأمل في السلطة العليا يجب أن يتأكد قبلا من تأييدهم ومعونتهم . على أن الدهماء ورجال الدين الجهلاء يستفيدون من تلك المدنية القديمة التي يمكن أن يقال إنها بدائية وفي نفس الوقت مهذبة . فمبدأ الصدقة المسيحية قد تغلغل في أعماق الغشاء الكثيف الذي يغشى القلوب . حتى أن فضيلة إعطاء الصدقات التي كانت واجباً

أضحت غريزة . وهذه المدنية الدينية القديمة تنتج رجالاً أكفاء . ولقد روى مسيو دو مونفريد فقال : (عندما بلغنا قمة الهضبة قدم إلينا رجل حبشي تغطى رأسه عمامة بيضاء كالتي يلبسها الرهبان . كان وجهه دقيق التقاطيع عليه مخايل المهابة والهدوء . وكان هذا الوجه طويلاً مسنوناً تطفر منه نظرة تائهة شاردة . وقد تناول يدى بحركة لا شعورية كأنه أحد أصدقائى . لقد كان ذلك الرجل هو الراهب حنا ممثل الكنيسة والحارس للأمير المخلوع . وكانت عباءته من الكتان الغليظ ، وكان عارى القدمين ، لكن يده كانت ناعمة رقيقة . وكان يتكلم بصوت منخفض لكنه مؤثر . ونظراً لأنى أعرف الى أى حد يتمتع رجال الدين الأحباش بقوة تختفى وراء ما للأباطرة من مظاهر السلطان ، فقد دهشت دهشة عظيمة لذلك المظهر المتواضع الذى يبدو به ذلك الرجل الضئيل ذو العمامة البيضاء المصنوعة من القطن . ولم يكن يتبعه حاشية ولا حرس خاص ، إذ لم يكن فى حاجة لذلك ، لأنه أينما ذهب انحنى أمامه كل من صادفه مظهرا الاجلال والاحترام . وجاء فى ذلك الوقت دِدْجاز جوبّانا يرى الأعمال الجارية . وكان راكباً بغلته السوداء الموشاة بالفضة ، وكان يحف من حوله خمسون جندياً ، وهو رافع بندقيته على كتفه . حقاً لقد كان منظره رهيباً وهو ينظر نظرة النسر ملتحفاً بردائه الرمادى . ها قد اجتمع الراهب وقائد الحرب . وقد يقول قائل : قد اجتمع عدوان فى مكان واحد . على أن رجل الكنيسة هو أعظم الأثنين رهبة وأشدهما خطراً . وهو نفسه يشعر بذلك ، فكان يبتسم ابتسامة هادئة . ومستقبل الحبشة يقف على هذين الرجلين ، وشقاؤها يرجع الى أن كلاً منهما يستخدم الآخر ويستعين به . فرجل الحرب يستعين برجل الدين على الاستيلاء على عرش ملك الملوك ، ورجل الدين يستعين برجل الحرب على الاحتفاظ بسيطرته على النفوس وبثروته العقارية . على أن وحدة البلاد المنوية أثناء ذلك تتفكك . والأجنبى رابض أمام جميع أبواب البلاد

وتاريخ الحبشة السياسى يكاد ينحصر فى حروب دائمة بين كبار رجال الأقطاع فى سبيل الفوز بتاج سليمان . وفى اللحظة التى تقاسمت فيها أوربا القارة الأفريقية ، وجدت الحبشة فى منيليك الرجل الذى استطاع صد أول هجمة على البلاد . ولقد عرف ذلك الأمبراطور العظيم كيف يفرض سلطته على الجميع بفضل نشاطه الحربى وحنكته السياسية . وكان أول همه تأييد سلطته فى الداخل وإغلاق أبواب البلاد فى وجه الغزاة . على أنه وقف عند ذلك الأمر ولم يتمده . إذ كان من الواجب الاستفادة من الانتصار المزدوج لينظم البلاد على الطرق الحديثة فى الانتاج والتبادل . ولكن الأمبراطور العظيم لم يستطع أو لم يرد ذلك . وقد يكون الموت عاجله قبل أن يتم ما أراد . ولقد حدثت قريباً حوادث عدة تبين أن النجاشى ليست له على بعض الأقاليم البعيدة إلا سلطة اسمية ، وأن هناك كثيراً ممن يدعون الحق فى عرش ملك الملوك . ويقال إن النجاشى يفهم تماماً حقيقة الموقف ويعرف ما يجب أن يفعله . على أن هناك عقبات تقف فى طريقه ، ذلك أن من الواجب اليوم أن يبذل جزءاً من قواه فى سبيل المحافظة على سلطته ، وأن يطلب مساعدة كل أولئك الذين يشلون حركته فى كل مشروع اصلاحى ، وذلك فى الساعة التى تهدد فيها مملكته بغزوة استعمارية جديدة . ومنذ عصر منيليك ، أى منذ خمسين عاماً ، تغيرت فى العالم وفى الحبشة نفسها أمور كثيرة . فدخلت افريقيا كلها فى تيارات التجارة العالمية الكبرى ، وصحب ذلك كل ما يلزم من الضرورات والآراء الجديدة . فالسيارات والطيارات زادت فى طرق المواصلات ، ولم تعد هناك قوة إنسانية تستطيع أن تطيل تلك العزلة التى ملكت الحبشة عدة قرون ، إذ كان لزاماً عليها أن تستعد لتأخذ مكانها بين سائر الشعوب . وكل ما فى المسألة هو معرفة ما إذا كانت تستطيع ذلك بمفردها مستعينة بوسائلها الخاصة ، أم هى — نظراً لشدة شبهها بمراكش — فى حاجة إلى دولة تحميها

إن استقلال كل دولة من الدول يقف من جهة على الدولة نفسها ، ومن جهة أخرى على الدول المجاورة . ولقد كان لمنيليك الحظ فى استطاعته الاستفادة من المنافسات الاستعمارية فى الوقت الذى كان يوجد فيه كثير من الأراضى الافريقية القابلة للاستعمار . والآن انتهى التقسيم . وبدلا من البحث فى هذه لم يبق إلا الابتداء فى استغلال الحبشة . ويضاف إلى ما سبق أن المنافسات على هذه البلاد يلوح عليها الهدوء ، وأن الاتفاق بين الدول

المتنافسة محتمل الوقوع . ومن هنا يعظم الخطر على الحبشة

وهذا الخطر الأجنبي يجمل المهمة الواجب القيام بها فيما يتعلق بالسياسة الداخلية تفوق قدرة رجل فرد مهما كان نابغاً . إن من الواجب إزالة الفوارق القائمة بين المدنية البدائية الدينية الساذجة والمدنية الغربية المادية . والواقع أن الحياة في الحبشة قد تطورت ، إذ من العسير أن يعيش شعب بأكمله عيشة الزهد والتقشف . ومن المحال إقامة روابط طبيعية دائمة بين الأفراد والجماعات من غير وجود مبادئ مشتركة بين الجميع . من الحق أن المدنية الغربية تتضمن كثيراً من الرياء ، فالرق على شكله الذي نراه في الحبشة ليس أفظع من العمل الذليل في الصناعة الكبرى ، إلا أن في الحبشة نظماً معينة هي تراث الماضي العتيق يجب أن تختفي من الوجود . وسواء دخلت الحبشة عصبة الأمم أم لا فهي لا تستطيع في العالم الحديث الابقاء على قانون التعذيب وعلى السطو والنهب والرق . على أن المرء يتساءل : على أية قوة منظمة يستطيع أن يستند ملك عظيم للقيام على خير ما يرام بالاصلاحات الضرورية إذا كان السكان لا يشعرون بالحاجة إليها قبله ؟ إن رجال الطبقات العليا الذين يملكون الأرض والسلطة لا يرغبون في تغيير يظنون أنه سيفقدهم كل شيء ولا يربحهم شيئاً . ذلك أنهم لا يطلبون إلا أن تزيد ثروتهم يوماً بعد يوم . وليس عند الطبقات العاملة في مختلف الأقاليم فكرة ما عن إمكان تحسين حالهم . واستغلال القوى للضعيف كأنه قانون طبيعي لا يجب أمامه إلا الاستسلام والخضوع . أما رجال الدين والرهبان وهم أصحاب السلطة العليا فأية مصلحة سيجنونها من نظام جديد ؟ بقيت الشبيبة المتعلمة القليلة العدد التي تطلب العلم في جامعات أوروبا وأمريكا ، إنها تعود إلى بلادها خشنة الطباع كارهة للأجانب . على أن الفكرة القومية وحدها لا تكفي ، إذ يجب أن تستخدم هذه الفكرة في تحقيق أمر من الأمور أو مبدأ من المبادئ . على أن المظنون أن استخدام هذه الفكرة في سبيل خدمة الحبشة سيكون أقل من استخدامها في سبيل الاحتفاظ بالحالة الراهنة من اقتصادية واجتماعية ودينية . وأمام هذه الحالة ، فان حدوث حرب ولو انتصرت فيها الحبشة ، سوف لا ينتج إلا نصراً مؤقتاً . ليس في الحبشة فلاح واحد يقارن بين ما يحدث في أسواق بلاده وطرقاتها وبين الحالة التي يستطيع أن يراها وراء الحدود . أما حال العقيدة الدينية فمن المحقق أن الكنيسة القبطية في مصر تسودها الآراء الحديثة ، وأن المعتقدات القديمة تفني شيئاً فشيئاً تحت تيارات العقل المستنير . ومن المحتمل أن هذه التيارات والاتجاهات ستظهر أخيراً عند مسيحيي الحبشة نظراً لموقع البلاد الجغرافي

(لموا) ترجمة ع . ك

الأدب العربي في المغرب

أبو العباس أحمد المقَّرى

١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرايبى

— ١ —

إننا نشاهد ، بملء الأسف ، كثرة مفكرة من شباب المغرب ورجاله ، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم فى ماضيهم القوى وتراثهم الجليل . فنجدهم لذلك يتأففون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضى الزاهر ، ويكيلون للمغرب والمغاربة عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد.

ولعل منشأ ذلك ، فيما نرى ، هو الجهل بما للمغرب فى عصوره الغابرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك فى تاريخ المغرب

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة ، واستعراض النماذج المتناثرة فى ثنايا الكتب ، لوجدوا فى سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المجدبة ، ورياً لنفوسهم الظمأى !

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحى الخالد ، ونهلوا من تلك المتع اللذيذة ، فسوف يجدون فيه المرهم الشافى لنفوسهم المريضة بداء اليأس ، ويستبدلون بتشاؤمهم القاتل تفاؤلاً

— ٢ —

وها نحن أولاء نجلى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد ، وننتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لنهضة الأدب العربى فى المغرب فى القرن الحادى عشر :

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرى [1] التلمسانى المالكى الأديب الكبير ، الشاعر المؤرخ ، ولد فى تلمسان ، ونشأ بها فى بيت علم وأدب ، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبى عثمان [2] سعيد المقرى الأديب العالم الشهير ، وأتقن اللغة العربية وآدابها ، وبرع فى معرفة أخبار العرب وأنسابها .

(١) نسبة إلى مقر بفتح الميم والقاف المشددة : قرية من قرى تلمسان
(٢) اليواقيت الثمينة

وكان له ميل شديد واطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها فى مختلف العصور ، وأولع من لدن نشأته بالمطالعة والتنقيب عن أحوال الدول الاسلامية ، واستظهار آثارها ، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة العرب فى الأندلس ، والوقوف على سر عظمتها ، وتطورها بين صعود ونزول ، وكيف عبثت يد الزمان بتلكم الآثار الحافلة التى خلدها العرب فى أوروبا

شب الفتى ، خصب الفكر ، متقد الذهن ، واسع الذاكرة . يتقلب فى فنون من الحديث ، ويحلق فى جو رائع من الخيال . يتنقل بين قصور قرطبة ومغانيها ، ويقلب نظره الحائر فى بدائع الحمراء ومجاليها ، ثم يعود فيسترحم القدر إشفاقاً على مجالس أدبها الممتعة ونوادرها

وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسى الجميل بالذهاب إلى « فاس » وريثة الحضارة الأندلسية ، ورؤية هذه الآثار عن كثب ، إذ هى صورة مصغرة من الحياة الأندلسية ، بما فيها من مبان وآثار ، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم . فقصد فاس سنة ١٠٠٩ وملأ بها وطابه ، وأخذ عن جلة العلماء كالشيخ القطار ، وابن أبى النعيم ، وأحمد بابا السودانى التمبكتى وغيرهم ؛ وأقام بفاس ميمون الحظ بين مظاهر الاجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب « جامعة القرويين » ؛ ثم رحل إلى مصر والشام ، وتردد على الحجاز كثيراً ، وألف بالقاهرة كتابه « نفح الطيب » . وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

— ٣ —

آثاره الأدبية : أبو العباس المقرى متشعب النواحى كثير المباحث لمن شاء دراسته . له آثار قيمة فى الفقه والكلام والأدب والتاريخ ، وشعر متناثر فى ثنايا كتابيه الجليلين : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب [1] » و « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض »

وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية ، إذ كانت هى البارزة فى حياته ، فهو « حافظ المغرب وجاحظ البيان [2] » شاعر

(١) فى أربعة مجلدات ضخام طبع مرتين وفيه نقص كثير عن النسخ المخطوطة نرجو تداركه عند إعادة طبعه . وأزهار الرياض فى أربعة مجلدات أيضاً ، طبع الجزء الأول منه (٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٣

رقيق العاطفة ، يصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسي في الرقة والجزالة ، والسهولة والامتناع

ولابدع ، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً في آثاره الأدبية ، فقد رأيناه كلفاً بالفن الأندلسي وآثار العرب في الأندلس منذ النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش في ذلك الوسط الخصب المشبوب العاطفة

وقد قال في أكثر أغراض الشعر : في الغزل ، والشوق ، والمدح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب ، والذكرى المؤلمة ، والقصص الشعري

وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه في الشرق بعيداً عن الأهل والوطن ، نائياً عن معاهد الصبي ومسارح الطفولة الأولى التي لم يبق في ذهنه منها إلا الذكريات المرة الممضة ، فنستطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة في شعره ؛ ولنسق لك مثلاً من ذلك . فمن قوله وهو في الشام يتشوق إلى بلاد المغرب :

كساها الحيا بُرد الشباب فانها ... بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبي فكأنما ... قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوي على رشد ناصح ... عناني ، ولا أثنيه عن غي لائم
أنال سهادي من عيون نواعس ... وأجني مرادي من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف ... من النهر ينساب انسياب الأراقم
بمر الينا ، ثم عنا ، كأنها ... حواسد تمشي بيننا بالنمائم
وبتنا ، ولا واش نخاف كأنما ... حللنا مكان السر من صدر كاتم

واسمعه يقول :

شربت حميا البين صرفا وطالما ... جلوت محيا الوصل وهو وسيم
فميعاد دمعي أن تنوح حمامة ... وميقات شوقي أن يهب نسيم

ويثور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجي ، فيصف لك حاله عند سماعها بهذه القطعة الرقيقة :

رُب ورقاء في الدياجي تنادي ... إلفها في غصونها الميّاده
فتثير الهوى بلمس عجيب ... يشهد السمع أنها عواده (١)
كلما رجّعت توجعت حزناً ... فكأنا في وجدنا نتباده (٢)

ثم يحاول أن يطفىء غلة ذلك الشوق المضني بالصبر ، ويتخذه شعاراً وسلوة ، فيسير على سنن غيره من الشعراء ، ولكنه يخفق إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق :

واني لأدري أن في الصبر راحة ... ولكن انفاقي على الصبر من عمري
فلا تُطف نار الشوق بالشوق طالباً ... سلواً ، فان الجمر يسعر بالجمر

ويعاوده الأمل في أن يلمس غرة من الدهر ، فيلتقي بعد طول البين ، ويجتمع بعد أليم الفراق

فنلتقي ، وعوادي الدهر غافلة ... عما نروم ، وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع ... والطير صادحة والروض مطلول

ولو أنا ذهبنا في هذا الباب نقتطف قطعاً من زهراته المتناثرة ، لاقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث من الايجاز

وفي الوصف نجتزىء بهذه القطعة :

ورياض تختال منها غصون ... في برود من زهرها وعقود
فكأن الأدواح فيها غوان ... تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الأطيار فيها قيانٌ ... تتغنى في كل عود بعود !
وكأن الأزهار في حومة الرو ... ض سيوف تُبسَلُ تحت بنود

ويبهره مايرى في جنة الدنيا « دمشق » ضريبة الأندلس والمغرب في بساتينها ، وأنهارها ، وجداولها ، فتعاوده الذكرى ويقول :

ذكرتني الورقاء أيام أنس ... سالفات فبت أذري الدموعا
ووصلت السهاد شوقا لحبي ... وغراما ، وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبي من الذكر يوما ... وعلى حبهم حنيت الضلوعا ؟
كلما أولع العذول بعتبي ... في هواهم ، يزداد قلبي ولوعا !

ثم يقول في وصفها :

محاسن الشام أجلى ... من أن تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا ... ولم نقف عند حد :
كأنها معجزات ... مقرونة بالتحدي

ويقول :

قال لي ما تقول في الشام حبر ... كلما لاح بارق الحسن شامه ؟ (١)
قلت ماذا أقول في وصف قطر ... هو في وجنة المحاسن شامه ! (٢)

(البقية في العدد القادم) عبد الهادي الشرايبي

(١) عواده : توقع على العود ، ملحنة أغرودتها
(٢) بادهه : فاجأه يريد أن نتبارى في إظهار الوجد

(١) شامه : نظره (٢) الشامة : الخال ، نقطة سوداء تكون في الوجنة أو في الجبين ، تزيد جماله سحراً

النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

وجهت احدى المجلات الكبيرة فى مصر إلى بعض الكتاب هذا السؤال: «إلى أى حدّ يجب الاقتداء بتركيا فى نواحى نهضتها الأخيرة»، فحفزنى هذا إلى الكتابة فى موضوع تجنبته زمناً طويلاً، لا استهانة به فهو جد خطير، ولكن اشفاقاً مما يثور بالنفس حين تعالجه

— ١ —

الترك العثمانيون اخوان لنا، نشأنا على حبهم، ومنحناهم قلوبنا فتمكن بها ولاؤهم، وشببنا نعدّهم علم المسلمين الخفاق فى زمن تنكست فيه أعلامهم، وجيشهم المجاهد على حين تفرقت الأجناد، وتخاذلت الأعضاد. كنا نعد مفاخرهم مفاخرنا، ومثالبهم مثالبنا، ونرى صلاحهم صلاحنا، وفسادهم فسادنا، ونفرح كلما فرحوا، ونبتئس كلما ابتأسوا. وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وبأيدينا وسعَ الأيدى المغلولة، والأعضاد المغلوبة. ولايزال التاريخ الحديث يدوّى بحادثات المدرعة (حميدية)، وحروب طرابلس والبلقان، وقدوم الطيارين العثمانيين إلى مصر، وغير هذا مما يشهد بالحب الصادق، والمودة المخلصة

ولقد نشأت على هذا الحب، لايطربنى إلا ما أطرب الترك، ولا يسوؤنى إلا ماساءهم؛ وفيهم تعلمت الشعر فشدوت به فى حروب طرابلس والبلقان، وكتبت فى الحرب الأخيرة أعطف عليهم القلوب، وأستحث الهمم على الامداد بالمال. ولست أمنّ عليهم بذلك فقد كان فرضاً علىّ وعلى غيرى

ولما قذف جنود الترك الأمجاد بجيش اليونان فى البحر كاد الناس فى مصر وغير مصر يجن جنونهم فرحاً وزهواً

— ٢ —

ثم وقعت هذه الواقعات التى تسمى «النهضة التركية الأخيرة»: فخابت من الناس الظنون، وتحطمت الآمال، وتصدعت القلوب، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم، يراه قد ركب رأسه، واشتط فى هواه، يقطع أواصر الأخوة، ويصرم حبال المودة، لايستطيع أن يغضى عن سيئاته وهى وخيمة العواقب، ولا تطيب نفسه أن يسمّع به ويذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومى همُ قتلوا أميم أخى فاذا رميتُ يصيبنى سهمى

فوقف يلومه حيناً، ويجادل عنه حيناً، ويردّ مقالة الخصماء، ويحذر شماتة الأعداء، ويلتمس له المعاذير، ويتربص به الافاقة من غيّه، والاياب الى رشده، ويدعو الله أن يلهمه السداد، ويهديه سبيل الرشاد. وها نحن أولاء ندعو ونرجو وننتظر

— ٣ —

وبعد فما هذه الأحداث التى تسمى «النهضة التركية الأخيرة»؟ نستعرض الحادثات لنرى ماهى:

فأما ذود الترك عن حياضهم، ودفعهم عن استقلالهم، وإيثارهم الموت الحرّ على العيش الذليل فشنشنة أعرفها من أخزم، عرف الترك بها فى كل زمان، وامتازوا بها فى كل ميدان، وكان لسلفهم فيها غرر مشهورة، وأعمال مأثورة، يدوّى بها التاريخ ويشهد بها العدوّ والصديق. فلا ينبغى أن يعد هذا من «النهضة الأخيرة». فقد كان السلف فيه خيراً من الخلف. كان ميدانهم أوسع، وعدوّهم أكثر، وخطبهم أفدح، وعبئهم أثقل. وتلك، على كل حال، محامد ينبغى أن تتقبلها الأمم، ويتنافس فيها أولو الهمم

وأما عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التى أبقتها الأحداث فى أيديها، وتركتها النوائب من الميراث المظيم — عكوفهم على الاصلاح والتعمير والتنظيم فأمر محمود، وسعى مشكور، وفرض تأخر عن وقته، إذ حالت دونه الخطوب الكارثة، والمصائب المتوالية؛ وهم فى هذا الاصلاح ليسوا مبتدعين ولا سابقين، فهم يحتذون على مثال الأمم التى سبقتهم فى الغرب والشرق. هم فى ذلك مأمومون لا أئمة، ومقتدون لاقدوة. والأئمة فى ذلك أمم أوربا، عنها أخذوا وبها اقتدوا. وعملهم فى هذا التقليد، عمل حميد. والله يهيئ لهم فى ذلك رشدا، ويهديهم الى الخير أبدا

— ٤ —

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة، ثم نلقى عليها نظرة جامعة لنتبين أين مبدؤها ومنتهاها، ومصدرها وموردها، ونرى مكانها من الاختراع أو المحاكاة، وسنعترف لهم فى هذا بحسناتهم، ونأخذ عليهم سيئاتهم، أخذ الصديق الناصح لا العدوّ الشامت، آملين أن يزدادوا من الاحسان، وينزعوا عن الاساءة

ونحن إذا خاصمنا القوم فى هذه الأمور فليس خصمنا الأمة التركية جميعها بل الحكومة التركية ، يشاركنا فى رأينا كثير من رجالات الترك الذين حملت كواهلهم أعباء الحرب الأخيرة ، ومهدت أعضادهم لهذا النصر المجيد ، ويشاركنا كثير من العلماء وأولى الرأى ، وكثير من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا

ونبدأ بمسألة الخلافة ، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور ، ومفتاح هذه النهضة ، قانعين بالقول الموجز واللمحة الدالة فى هذا الموضوع الواسع :

مهما يقل القائلون فى صحة الخلافة العثمانية وفسادها ، وجدواها وضررها ، ومهما يفتن المجادلون فى تبيان ماجلبت على الدولة من مصائب ، ورمتها به من عداوة أوربا ، فلا ريب عندى أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانيـة قط بل نفعتها أحياناً . ما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دولة الخلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية . وقد ثارت الحروب منـذ نشأت الدولة قبل أن يلقب الخليفة العباسى فى مصر بايزيد الأول بلقب « سلطان الروم » ، وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر ويحمل إلى استانبول الخليفة المتوكل على الله . ولم يكن مكان الترك فى الخلافة الاسـلامية واضحاً فى معظم أطوار حروبهم ، بل اسـتقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوربا أثناء هذا الجلاد المديد ، والحروب المتوالية ، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة ، واعترف الأوربيون فى العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين كما يتكلم الروس عن المسيحيين . فلم تكن الحروب نتيجة الخلافة ، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب ، وهى على هذا لم تكن واضحة ولا ادعاها العثمانيون صراحة إلا فى العصور الأخيرة . . . لو أن أوربا شنت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة فلماذا قضت على الدولة التيمورية فى الهند ، ودولة الأشراف السعديين فى المغرب وغيرها ؟ ووالت غاراتها على المسلمين فى المشرق والمغرب

والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها ، وكساها هيبة وجلالاً فى الشرق والغرب ؛ وقد أدرك ذلك السلطان عبد الحميد فاجتهد أن يمكن هـــذه الخلافة فى نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا

وإن يكن المسلمون قصروا فى الدفع عن الدولة ، وامدادها بالمال والجند ، فماذا عسى أن تستطيع الأمم المغلوبة على أمرها ، الذليلة فى أسر أعدائها . وقد خاف الأوربيون أثناء الحرب الكبرى أن يلقوا الدولة برعاياهم المسلمين فاحتالوا لذلك حيلاً شتى : كان الفرنسيون يأخذون جنود أفريقية يوهمونهم أنهم سيدافعون عن الخلافة والاسلام ، ولم يستطع الانكليز ، بعد تمرد الرديف المصرى وإبائه أن يحارب الترك ، أن يرسلوا إلى القتال جندياً من المصريين ، فاحتالوا عليهم وأخذوهم عمالاً وراء الجيش . وقد تطوع كثير من المسلمين لنصرة الدولة فى الحرب والسياسة ، ولو كان أمر المسلمين بأيديهم لكان لهم موقف آخر . وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن انكلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرة ، وتنصرهم بكل قواها فى الحرب الأخيرة ، حين ثار مسلمو الهند وطلبوا منها الابقاء على دولة الخلافة ، وأن هؤلاء المسلمين على ضعفهم عاونوا على انقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية . ولا تنس معاونة أمثال السيد السنوسى وطوافه فى الأناضول وكردستان لتأليب الناس وإثارتهم للجهاد . وقد رأيت بعينى صورة الغازى مصطفى كمال باشا فى قلعة سنوسـية أهداها إليه السيد أحمد فلبسها تبركاً

ثم هذه الخلافة العثمانية على وهنها وغموضها كانت فى هذا الزمن العصيب علماً ينظر إليه المسلمون ان لم ينحازوا إليـه ، وتنضوى إليه آمالهم ان لم تنله أيديهم ، وتعتز به نفوسهم وترى فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز

ولقد كان إلغاء الخلافة فى هذه الخطوب المكفهرة كحل رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبى عن تاريخ المسلمين . وأحسب أن الانكليز ـ مثلاً ـ كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كد

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الاسلام قد أخروا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم فى صف دول البلقان ، وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشترى مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل ، والمال الوفير ، طيبة نفوسهم بما بذلوا وما نالوا

يقال إن للثورة آثارها ، وللمحنة أعذارها ، وما كان إلغاء الخلافة ضرورة اقتضاها الاصلاح ، ولكن إفراطاً أدت اليه الثورة . ونحن نقول مهما يكن السبب فذلك شر أصاب المسلمين لا محالة ، وإن عجز عن إدراكه الثائرون فى غبار الثورة ، فقد أدركه

١٥ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وصل الفائت : ذهب بستور إلى شرق فرنسا يبحث فساد الخمور فأصلحها ، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الخلائين واستغاثتهم فأصلح ما فسد من صناعة الخل . وما كاد يستقر فى معمله بباريس حتى جاء القدر يدق بابه ، جاءه أستاذه القديم « دوماس » يتطبب لدود القز المريض فى جنوب فرنسا

— ٦ —

فأجابه دوماس : « إن أقليم الحرير فى الجنوب هو مسقط رأسى ، وقد حضرت توًّا من هناك . وقد رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بلدى المسكين ، قريتى « أَلياس » المنكودة ، تلك البلاد التى كانت ثرية بالأمس ، زاهية بشجر التوت حتى أسموه الشجر الذهبى ، تلك البلاد أصبحت عراء بلقعا ، وتلك المراص الخضر أصبحت غبراء ذابلة ، وأهلها وهم أهلى أصبحوا لا يجدون القوت » . وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندّى بالدمع

وكان بستور يقدّر نفسه ويضعها فوق الرجال ، وكان قليل التقدير للغير ، إلا أنه حفظ فى قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس . واعتزم أن يبذل المعونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين . ولكن كيف ؟ فبستور فى هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض . بل لقد حدث بعد ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفعها إلى أذنه وهزها وصاح : « ما هذا ! كأن داخلها شيء ! » . جهلٌ مُطبق بالشرانق والدود

وكَرِه بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود ، لأنه كَرِه أن يخيب ، والخيبة كانت أبغض الأشياء إلى نفسه . ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه ، وبرغم اعتداده المرذول بنفسه ، استبقى من صباه حبَّ الطفل واحترامَه لمعلمه القديم . فقال لدوماس : « أنا ذا طوع يديك ، فمرنى بالذى تريد ، وارْمِ بى حيث شئت من الأرض »

وحزم أدواته ومكرسكوباته ، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه ، وحزم كذلك أولاده ، ومدام بستور — تلك المرأة الصبور التى لم تكن تشكو أبداً — وسافر بهذه الحمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز ، ويفقر الألوف من الخلق فى جنوب فرنسا . وبلغ « ألياس » فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هى إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يُعرف بالشرنقة ، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة ، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريرى فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض ، وهذا يتفقس فى الربيع التالى عن جيل جديد من دود جديد . واستاء رعاةُ الدود من جهله الفاضح . وذكروا له أن المرض الذى يصيب دودهم يُعرف بالندوة ، وأنه يتراءى على الدود فى صورة بقع صغيرة سوداء كالفلفل . ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدّعى كلها تفسير هذا المرض ، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين ، أولاهما تلك البقع السوداء التى تظهر بظهور المرض ، وثانيتهما كُريّات صغيرة تتكوّن داخل الدودة ، صَغُرت حتى لا تُرى إلا بالمجهر

وقبل أن يستقر فى مهبطه الجديد ، وقبل أن تستقر أسرته فى بيتها الجديد ، كشف عن مجهره وأخذ يحدق فى باطن هذا الدود المريض ، ولاسيما فى تلك الكُرَيّات ، وخرج سريعاً على أن هذه الكريات عرض ثابت من أعراض الداء . وبعد خمسة عشر يوما من حلوله بـ « ألياس » دعا اليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم : « عندما يحين أوان اللقاح ، ضموا كل انثى وذكر وحدهما ، ثم اتركوهما لينسِلا وتبيض الأنثى ، فاذا خرج البيض فافتحوا

البعيدون يقيناً ، وبكوا من أجله طويلاً . على أن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة ، والخطوة الأولى فى خطة موضوعة .

ويعتذر بعض المعتذرين بأنه كان لابد للنهضة الأخيرة من جمهورية ، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة ، وهذا عذر أشبه بالذنب . ويعتذر آخرون بأن الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء الى معونة أولئك اضطرتهم الى إلغاء الخلافة ، فهل يرضى الكماليون أن يعدّ عملهم فى الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم ؟ ما أحسبهم يرضون من أصدقائهم أن يقفوهم هذا الموقف ليدافعوا عنهم : وهذا بعدُ لا يخفف المصيبة التى أصابت المسلمين بالغاء الخلافة

— له بقية —

عبد الوهاب عزام

بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئا من شحمه ، وانظروا اليه بالمجهر ، فاذا هو خلا من تلك الكريات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم ، وأن بيضه سيُفرخ فى الربيع المقبل دودا سليما

ونظر الريفيون الى المكرسكوب وهو يلمع وقالوا : « نحن الزراع لانعرف كيف نعالج مكَنةً كهذه » . وكان فى قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة ، فمنذئذ تراجع عنهم بستور العالم ، وتقدم اليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال ، فقال لهم : « حسبكم ! حسبكم ! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم ! كيف تعجزون يا رجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندى فى معملى بنت لا يتجاوز عمرها ثمانى سنوات تعالجه فى لباقة ، وتكشف هذه الكُريات فى سهولة ؟! » . وقرّرت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحه

وذهب بستور يبذل من نفسه لحركة لا تعرف السكون ، فطاف بالمناطق المصابة بالداء يلقى المحاضرات ، ويسأل الأسئلة ، ويعلّم الفلاحين استخدام المجاهر . ثم يعود فى رَجعة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزوّدهم بالنصائح فى تجارب لم يستطع هو اجراءها حتى ولا ملاحظتها . ثم يملى فى المساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات ، ولا يطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الوباء يروّح عن الزراع البائسين ، ويخطبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى . وجاء الوقت الذى يبدأ الدود يصعد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرانق فعجز عن الصعود . وقعت الواقعة وخابت الآمال وأنفقت الجهود فى غير طائل ! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم ، يطلبون الفَراش السالم الصحيح ليُخرج لهم البيضَ الخالى من تلك الكُريّات اللعينة ، فلما حصلوا على هذا البيض السليم ، أو الذى حسبوه سليماً ، فرّخ فخرج منه دود سقيم ، قلّ نماؤه ، وضعفت شهيّته فقل طعامه ، وذهب نشاطه ، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها ، زاهداً فى الحياة وفى أطوارها ، غير آبهٍ لهوى الغوانى الحسان فى مفوّفات الخز وجوارب الحرير

وارحمتاه لبستور فى تلك الخيبة ! جمع المسكين كل همه لتخليص صناعة الخزّ مما دهاها ، فسار ودار وخطب ، ولم يُبق لنفسه وقتاً يَقْبَع فيه فى معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء الذى أصاب الدود . أغراه المجد فخدعه عن العلم ، وأغواه الصيت فصرفه عن الحقيقة ، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد ، عازف عن الصيت ، صبور على العمل ، جَلْدٌ على التجربة المسئمة الطويلة

ودفع اليأس بعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه ، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه . واسود بياض أيامه ، وطلب الخلاص فى العمل فزاد انهماكا فيه ، ولكنه كان الغريقَ ينهمك فى العوم يرجو النجاة ويبغى الساحل ، ثم يقف هنيهة بعد إجهاد ليحسّ الأرض علّه يجد قراراً فلا يجد قراراً . واختلط عليه أمر هذا الدود ، فقد كان يقع أحياناً على نسائل تسرع فى تسلقها عيدان التوت وتأخذ فى نسج شرانق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريات التى كان يحسبها دليل الداء . وأحياناً أخرى كان يقع على نسائل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تهم بالصعود إلى أفرع التوت ، حتى يعتريها إسهال غازىّ ثم تنضمر فتموت ، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكُريّات شيئاً . فأخذ بستور يتشكك فى اعتبار هذه الكُريّات عرضاً من أعراض الوباء . وزاد الطين بلة والحالة سوءً أن دخلت الفئران إلى دوده الذى كان يُجرى عليه تجاربه فاستطعمته فالتهمته ، وأخذ أعوانه الثلاثة المساكين « ديكو » و « مايّو » و « جرنيه » يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران . وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كلٌّ إلى عمله ، حتى تظهر السحب فى الغرب قاتمة ، فيترك كلٌّ عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر . وكنت ترى مدام بستور فى أعقابهم والأطفالَ فى أعقابها . وبستور المتعب المجهود كان لا يستقر فى الامساء فى كرسيه الكبير المريح حتى يأخذ فى إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شىء باتباعهم طريقته فى تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال ، جاءته بعدها عَزيزته تحضه على التجريب ، والقَدَرُ يمهد له سبيل الخلاص ، قال لنفسه : « أنا على الأقل بحثت فى الحصول على بعض نسائل من الدود صحيحة سليمة ، فاذا أنا غذيتها على ورق التوت بعد تلويثه بافرازات الدود المريض ، فهل ياترى تموت هذه النسائل السليمة أم تمرض وتذهب ؟ ! » . وفعل هذا فماتت النسائل يقينا . ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذى حسبه ، فبدل

مراجعات

١

السكر والمِبْرَت

كتب الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى العدد (١٠٠) من (الرسالة) كلمة طيبة حقاً عن الجزء الثانى من « ضحى الاسلام » للأستاذ أحمد أمين . ثم أعترض على عبارة وردت فى الكتاب . وقد استغلق على فهم الاعتراض فأحببت أن أناقش فيه الأستاذ عبد الوهاب ، عله يجلو لنا وجه الصواب

قال : « ذكر الأستاذ — أحمد أمين — فى ص ٢٤٥ أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات فى اللغة العربية ، ثم ساق مثلاً لذلك فقال إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن ؛ ولى على هذا اعتراضان : الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى ، بل هو تعريب للفظ شكر الفارسية ، وهى قريبة جداً من لفظها فى اللغة الانجليزية Sugar . راجع . . . . والاعتراض الثانى هو أنى .... الخ » وهذا الثانى ليس فى موضوع المناقشة

ولقد رأيت أن الأستاذ أحمد أمين لم يقل أن كلة سكر عربية ، ولا يمكن أن يفوته أنها معربة ، ولا سيما وقد سردها فى الكلمات التى أخذها العرب الفاتحون من الفرس فى ص ٢٤٨ من الجزء الثانى من « ضحى الاسلام »

لهذا لم أخرج اعتراض الأستاذ عبد الوهاب إلا على وجه أنه ينكر الترادف فى اللغة العربيــة بين لفظين احدهما معرب والآخر عربى

وقبل الافاضة فى هذا البحث أرى أن أضع أمام القارئ نص العبارة التى وردت فى « ضحى الاسلام » ، والتى وجه اليها الاعتراض لنكون على بينة فى فهمها وفهم الاعتراض . وهاهى ذى : « وكان هذا الاختلاف أيضاً أهم الأسباب فى كثرة المترادفات فى اللغة العربية ، فاحدى القبائل تضع اسما لشىء ، وتضع قبيلة أخرى اسما آخر ، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا : — مثلا — إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن . . . . . . ولهذا كثرت المترادفات كثرة غريبة ، فقالوا إن للعسل ثمانين اسما و . . . الخ » . وعبارة الأستاذ أحمد أمين على هذا الوضع لا تفيد أن السكر لفظ من وضع إحدى القبائل ، إنما هى تفيد أن المِبرَت من وضع أهل اليمن ، وأن المبرت والسكر قد أصبحا مترادفين . والترادف على ما عرفه الامام فخر الدين هو الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد ، كذا فى الجزء الأول من المزهر للسيوطى ص ٢٣٨ . وهذا ينطبق على سكر ومبرت ، فلا خلاف فى أن كلة سكر وإن كانت معربة قد اندمجت فى العربية واستقرت بين ألفاظها وجرت فى كلام فصحاء العرب « وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها تجرى على أسلات الأقلام ، وتجىء فى أفصح الكلام ، وقد عربها العرب فجرت مع الألفاظ العربية فى عنان »

هكذا يقول الأستاذ الجارم فى ص ٣٢٦ من مجلة المجمع اللغوى الملكى . وقد ذكر عدة ألفاظ من هذا القبيل من بينها سكر ومبرت . وإن كان الأستاذ الجارم قد عبر عن هذا بأنه ترادف متوهم فقال : « وهناك أسباب دعت الى توهم الترادف : منها دخول كلمات فى العربية من لغات أخرى . . . . . الخ » إلا أنه عد هذا التوهم من مذهب المتشددين ثم استدرك بما يفيد جواز الترادف فقال : « نعم إن المتشدد لا يعد هذه الكلمات من المترادفات لاختلاف اللغة ، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها وأصبحت ذات حق بمضى المدة الطويلة . . . الخ » العبارة التى اقتبسناها . وهناك دليل آخر على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر معرب نجده فى كلام الأستاذ الجارم الذى استند اليه الأستاذ عبد الوهاب فى اعتراضه . بل هو دليل على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر أعجمى خالص . ذلك قوله فى ص ٣١٤ من مجلة المجمع : « والمثل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء ؛

أن يتغطى الدود بنقط كالفلفل سوداء ويموت بطيئا فى خمسة وعشرين يوما كما يفعل الدود المريض بهذا الوباء ، إذا به يتقوس وينضمر ويقضى فى اثنتين وسبعين ساعة . واغتم بستور وناله اليأس فأوقف التجربة ، وخاف عليه إخوانه الخلصاء مما هو فيه ، وودوا لو أنه يعيد هذه التجربة مرة أخرى

(يتبع) أحمد زكى

٤٠٦٠

وقد وزدت على أنها من باب الترادف . . . فمن مرادف العسل الدَّسْتِفْشارُ ÷ والمستفْشار . وهو العسل الذى لم تمسه النار ؛ وليست واحدة منهما عربية . . . . الى أن قال ... ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره » . فلعل الأستاذ عبد الوهاب يرى بعد هذا جواز إطلاق الترادف بين لفظين فى لغة أحدها عربى والآخر أعجمى أو على الأقل معرب وللفظ السكر بين المعربات مكان وطيد فى العربية

اليوزباشى أحمد الطاهر

٢

التربية الخلقية والاجتماعية

فى المدرسة

الى الأستاذ فخرى ابو السعود

قرأت ياسيدى مقالك الذى دبجه يراعك تحت هذا العنوان فى عدد « الرسالة » السابق ، فخطر لى أن أعلق عليه هذا التعليق

كلنا متفق على أن الأخلاق فى مدارسنا ليست مما يشرف ولا ينبئ بخير . ولكن الشيء الذى بلبل بالى وشرد خيالى هو طبكم لهذا الداء : هو نصحكم بفصل طبقات الناس فى المدرسة ، حتى تستقيم أخلاق الطلبة فيها ، إذ تقولون فى وصف الداء « قبولها — أى المدرسة — الطلاب من جميع الطبقات ووضعها أبناء الطبقة المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة فى المدرسة الواحدة بلا تمييز » ثم قولكم فى مكان آخر تصفون الدواء (فيجب أن تراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يقبل فى المدرسة ، وأن يكون لهذا شأن فى توزيع الطلاب على المدرسة بل الفصول وتخصيص مدارس فى البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة)

أين ياسيدى هذه الطبقات الاجتماعية التى تعنيها ؟ وعلى أى قاعدة نقسمها ؟ أفنتراجع إلى القرون الوسطى نستلهمها هذا التقسيم فنضع فواصل ومتاريس بين الأشراف والعامة ؟ وإن كان ذلك ياسيدى ، فأين طبقة الأشراف هذه أو الطبقة المحترمة كما تسميها ؟ وأين طبقة العامة أو الطبقة الوضيعة فى رأيك ؟ كيف نعرفها ؟ وبم نميز إحداها من الأخرى ؟

أجل أجبتم ياسيدى عن هذا السؤال فقلتم : « الطبقات المحترمة التى تستطيع دفع المصروفات العالية »

إذن ياسيدى كل غني فى هذا البلد شريف عالى المكانة سامى الأخلاق ، لا يجوز أن يجلس فى معهد علمى إلى جانب الفقير الذى يجب أن يكون من (طبقة وضيعة فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان)

إذن كل من يستطيع أن يدفع مصروفات عالية يعد من طبقة الأشراف ، وكل من يقصر عن ذلك يعد من الطبقة الوضيعة

فأين شرف أكثر الأغنياء فى مصر ياأستاذ ، ومن الذى يعترف بذلك الشرف ؟ أمن الشرف هذه الفضائح الخلقية التى تنشر عن بعضهم كل يوم ؟ أمن الشرف هذه الفضائح المستورة بين جدران « الفيلات » التى لا يسكنها إلا الأغنياء ، وفى قيعان « الصالات » التى لا يؤمها إلا الأغنياء ؟

ما رأيك يا سيدى فى أننى ما رأيت أفسد أخلاقا ممن (يستطيع دفع المصروفات العالية) ، وممن يستطيع أن يخرج لك من بطانة ثوبه من المال ما يسيل اللعاب ويغرى الأفئدة ، ومن يملن فى صوت كالرعد أنه اغتنى غناء لا يجاريه فى غناه أحد . . ثم ما رأيك فى أن أغلب من (لا يستطيع أن يدفع مصروفات عالية) ومن يطرد من المدرسة كل يوم لعجزه عنها هو المثل الكامل للخلق الكامل . . . ؟

ثم أراك ياسيدى تشبهنا فى ذلك بالانجليز . . . ولست بالطبع فى درايتكم حتى أتحدث عن انجلترا حديث عارف ، ولكن ترامى إلى علمى أن الانجليزى كلما زاد غناه عظم خلقه ، والأمر هنا على النقيض ، فالارتفاع هناك بالخلق ، والارتفاع هنا بالمال ، حقيقة مرة ولكن لا شك فيها

ولكم أود مع ذلك ياسيدى لو تفصل طبقات الطلاب فى المدرسة على هذه القاعدة قاعدة الجاه والغني حتى يتسنى لكل فقير مؤدب أن يحتفظ بأدبه ويستقيم على خلقه

زكى شنوده جندى

ذكرى سيد الوجود

مُحَمَّد

للأديب محمد البزم

نبيٌّ حبا عدنان فضلاً وسُؤْدَداً   فعمَّتْ جميع العالمينَ مواهبُهْ
أخو هممٍ لا يُدركُ الدهرُ شأْوَها   ويجهلُها أعداؤُهُ وأقاربُهْ
رأى الكَوْنَ في تيهٍ من الجهلِ أسفعٍ   تشقُّ عُبابَ الداجياتِ مراكبُهْ
فأطلَعَ في آفاقِهِ فَرْقَدَ الهدى   إلى أن أصاب الحقَّ في الليلِ حاطبُهْ
وَقِيدت له الدنيا مَقادةَ طائعٍ   ذَلولٍ فكانت في سواها مآربُهْ

* * *

مُحَمَّدُ إني عن مَديحِكَ عاجزٌ   وَشأْوُ بياني دونَ ما أنا طالبُهْ
أتيتَ وقد شاخَ الزمانُ فَرَدَّهُ   نداكَ فتيًّا بعد ما ازبدَّ حالبُهْ
سطعْتَ ولَيلُ الغيِّ مُلقٍ جِرانَهُ   على الكونِ تَهمي بالرزايا سحائبُهْ
يواتيكَ وَحْيٌ لا يُرامُ ومنطقٌ   بوادِرُهُ محمودةٌ وعواقبُهْ
فجئْتَ بقُرآنٍ حوى كلَّ حِكمةٍ   أنارتْ دياجي الكائناتِ كواكبُهْ
يُنصُّ فتَنضى الظالمينَ حُدودُهُ   وَيُتْلى فَتُرْدِي المارقينَ ثَواقبُهْ
وَقَوَّمْتَ من زيغِ الأعاريبِ فاستَوَوْا   على مَنهجٍ لِلعدلِ يأمَنُ راكبُهْ
وَرُضْتَ جِماحَ المُستبدِّينَ راكباً   من الحقِّ متْناً يُوضِحُ السمْتَ لاحبُهْ
تلطفتَ بالغاوي فَطَوْراً تُلينُهُ   وحيناً تُصاديهِ وآناً تُغالبُهْ
جَلَوْتَ عَماياتِ القلوبِ فأبصرَتْ   وزيَّحتَ عنِ اللُّبِّ السليمِ غياهبُهْ
ودافعْتَ عن ذاتِ الإلهِ بِعزْمةٍ   متى رامتِ الجبّارَ صاحتْ نوادبُهْ
وأوصيتَ خيراً بالكنائسِ مانعاً   ذَوِيها ، وجيشُ الحقِّ تمضي قَواضِبُهْ
صَقَلْتَ حواشي الدهرِ فانْصاعَ طيِّعاً   وأذْعَنَ لا تَسْري بِشَرٍّ عقارِبُهْ
وَقلَّمتَ أظْفارَ الزمانِ فأعرَضَتْ   عن الضارعِ المسكينِ تَنْأى مصائبُهْ

* * *

وذي أشَرٍ أنعَمْتَ بالخيرِ قلبَهُ   وقد أُنعمتْ بالشرِّ قبْلاً ترائبُهْ
وذي دُرْبَةٍ رازَ الزمانَ تركْتَهُ   كذي الجهلِ ما أجدَتْ عليه تجارِبُهْ
وَغضْبَةِ حقٍّ في عُلى العُرْبِ غادرتْ   عدوَّ بني عدنانَ سُفْلا مراتِبُهْ
وفيْلَقِ ظُلمٍ سارَ كالبحرِ زاخراً   يَجُرُّ بهِ ذَيلَ الغوايةِ ساحبُهْ
بعثتَ به جيشاً من الرُّعبِ فارْعَوى   تضيقُ بهِ أجواؤُهُ وسباسبُهْ
يخفُّ إليك الدارعونَ مخافةً   وقد أمِنَتْ أطفالُهُ وكواعِبُهْ
تحوطُكَ من عُلْيا قُرَيْشٍ عِصابةٌ   لها الفَلَكُ الدوّارُ تعنو ذوائبُهْ
جَرَزْتَ بهم ما بين شَرْقٍ ومغربٍ   كتائبَ عزمٍ نائياتٍ رغائبُهْ
إذا مرَّ منهُمْ موكِبٌ لاحَ موكِبٌ   تَمُجُّ زُعافَ الموتِ صِرْفاً مَقانبُهْ
بكلِّ فتى ماضي العزائمِ لَهْذَمٍ   إذا اعتزَّ شأنُ العُرْبِ يعتزُّ جانبُهْ
يرُومونَ مجْداً لا تني عزَماتُهُمْ   عن المجدِ حتى يدركَ المجدَ خاطبُهْ
دفعتَ بهم في وَجهِ كلِّ عظيمةٍ   فخاضوا إليها الموتَ دُهْماً مساربُهْ
فأسْأَرْتَ للأقوامِ في كلِّ وجهةٍ   جدًى لم تَشُبْهُ بالأذاةِ شوائبُهْ
وغادرْتَ للإسلامِ صَرْحاً مُمَرَّدًا   تُناطحُ أعنانَ السماءِ مناكبُهْ
فلا زالَ مِنْ فُرْقانِكَ البرِّ للورى   مناهلُ هُدًى صافياتٍ مشاربُهْ

دمشق   محمد البزم

تأبين الكاظميّ

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

صدق النعيُّ ومات عبد المحسن   يا شعر أبّنه ويا نفس احزني
يا شعر أنت ومحسنٌ قد كنتما   عمراً رفيقيْ غربةٍ وتوطّن
قد عشتما في كل منزلة معا   كالفرقدين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أراني داريا   أشغفتُ بالنسرين أم بالسوسن
حتى احتوته يدُ المنايا بغتة   بمخالبٍ معقوفةٍ كالمحجن
لمن الزعامة في القريض ومن لها   بعد الخفيّ الشاعر المتفنّن
ملأت قصائدُه القلوبَ حماسةً   من بعد ما شغلت جميع الألسن
شعرٌ يكاد يسيل منه لفظُه   مثل الندى من رقةٍ فيهزّني
شعرٌ إليه بفعل مغناطيسه
في السمع تنجذب القلوب وتنحني
العبقريةُ فيه مُعترَفٌ بها   من ذا يسيء ظنونه في المحسن؟
شيخ القريض قضى فكان عليه لي
حزنٌ بعيدٌ غورُه قد مضّني
في كل قطر أبّنته عصبةٌ   ما كلُّ من لاقى الردى بمؤبّن
بكت العروبة في الجزيرة محسنا   ماموتُ شاعرها الكبير بهيّن
فقدت فأوجع قلبها فقدانُها   منه فتًى شهماً كريم المعدن
مات الذي كانت به معتزّةً   يا رب إن الخطب جلّ فهوّن
قد كان في كل المواقف واثقاً   بالنفس شأن الشاعر المتمكن
دفنوه في ملحودة وخياله   في أعيني فكأنه لم يُدفن
ما كان للآداب إلا روضةً   ما شئتَ من زهرٍ حوته تجتني

* * *

مَن للغريب قضى وكان مولّيا   للطرف عند الموت شطرَ الموطن
قد ودّ لو أن المنيّة أمهلت   وإليه عيدَ به قريرَ الأعين
لكنها قد أعجلته بغربةٍ   من كفها في وثبةٍ من مكمن
الشعرُ أسمع شاجياً خفقانَه   فكأنه أنات قلبٍ مُثخَن
ياشعر أنت من الفجيعة مؤلَمٌ   وأرى الأسى بجبينك المتغضن
بيني وبينك في الحياة وشيجةٌ   وجميعُ ما هو محزنٌ لك محزني
يا شعر بعد الناثرين دموعَهم   إن كان عندك ما تبثّ فبيّن
ما أكبر الأخلاقَ في نفس امرئ
إن خاشنته الناسُ لم يخشوشن

* * *

قد عاش عيشاً والحياةُ مُلحّةٌ   ما كان بالمغني ولا بالمسمن
من ديدن الشرق احتقار ذوي النهى
والشرق ليس مغيّراً للديدن
الكاظميّ قد اعتنى ببلاده   وبلاده بحياته لم تعتن
لو كان يحظى في العراق ببلغةٍ   ماسار يقصد مصرَ عبدالمحسن
بلدٌ به بخلاف ما في غيره   شبع الدخيلُ وأسغب ابن الموطن

* * *

للمرء في الأرض الفضاء مساكنٌ   أنّى مضى والقبرُ آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائحٍ   كالموت حُمّ على فراشٍ ليّن
لا تسألوني عن مصير مَن انطووا   أنا بالعواقب لستُ بالمتكهّن
قالوا وراء الموت أهوالٌ ولم   أحفل بما قالوا ولم أتيقّن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلةٍ   للروح خالدةً وراء الأزمن
تبني الحياة لها الصروحَ من المنى   والموت يهدم كلّ ماهي تبتني
في الكون هذا كلُّ شيء ممكنٌ   إلا البقاء فذاك ليس بممكن
وكأننا صور الخيال لبرهةٍ   نبدو ونخفى عن شعاع الأعين
الكون عن ماضيه لم أك راضيا   والكون عن آتيه لستُ بآمن
فرحٌ بجانبه همومٌ جمّةٌ   هذا منيحةُ دهرك المتلوّن
لابد من موتٍ لمن هو عائشٌ   فاشجُع إذا قابلته أو فاجبن
إن المنون لرابضٌ مُتحيّنٌ   ماذا مرادُ الرابض المتحيّن

* * *

أرَبابُ إن الحزن يقتل أهلَه   أرَبابُ يا ابنة محسنٍ لا تحزني
أرباب صبراً فالحياة فريسة   والموت ذئبٌ إن سطا لا ينثني
يا بلبل الشعراء مالك صامتاً   من بعد تغريد بشعرك مُشجِن
قد سرتَ قبلي للردى متعجّلا   ولعلّني بك لاحق ولعلّني

(بغداد)   **جميل صدقي الزهاوي**

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ معروف الرصافي

كان أبو الطيب امرأً قُوَله   يبتكر الشعر مذكياً شُعَله
صاحب نفس كبيرة شرفت   فشرّفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذي انتشرت   أشعاره في البلاد منتقله
أوجد للشعر دولة عظمت   به فعزت من غيره دُوَله
من كل معنى أغر مؤتلق   في لفظه كالعروس في الحجَله
وربما رق لفظه فبدت   في شعره كل كِلْمةٍ ثمله
وربما لم تَبِن مقاصده   لأنها فيه غير مبتذله

فسائلن عن قريضه حلبا   كم قطفت منه زهرة خَضِله
خلد ذكرا لسيف دولتها   أيام وشّى بمدحه خلله
فاعجب لسيف لم تَبْل جدته   وشاعر بالمديح قد صقله

لو حاز موسى مضاء عزمته   ما تاه في التيه عندما دخله
وهو الذي اجتازه بيَعْمُلَةٍ   تحمل منه الهمام لا الثُّكَله
قد بات كافور من جراءتها   على الموامي بمهجة وجله
إذ أعجزته بالسير عن طلب   لا خيله تخشى ولا إبله
فسل به النيل يوم ناقتُه   تغمرت منه وانتحت جبله
كيف أتى مصر كالعقاب لكي   يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها   ثم وشيكا بهجوه قتله

في شعره حكمة مهذبة   وروعة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحة   وصنعة بالفنون متصله
قدرته في البيان واسعة   يتيه فيها السؤال والسأله
إذا المعاني بذهنه ازدحمت   ما ربكت في انتقائها حيله
كم شاعر قد قفا له أثرا   وناقد راح يبتغي زلله
فأخفقوا عاجزين عن درك   لبعض ما كلُّه تيسر له

قل لابن عباد أي منقصة   من أجلها كنت مكثراً عذله
أطبعُه بالذكاء متقداً   أم نفسه بالاباء مشتمله
أم شعره والعصور ما برحت   تسعى بكل استجادة قِبَله
لكنما رمت من مدائحه   ما لم تكن سالكا له سبله
طمّاعة منك غير واعية   وهي لعمري حماقة وبَلَه

أكبر من أكبر القريض به   وأكبر القاتلين من قتله
يا قاتليه لو تعلمون به   إذن قتلتم نفوسكم بدله
لكنكم تجهلون رتبته   ماذا فعلتم يا أجهل الجهله
قتلتم الشعر والاجادة والأ (م) بداع فيه يا ألأم القتله
لستم بذا القتل من بني أسد   بل انتمو فيه من بني وَرَله

لم يزل الدهر بعد مقتله   يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عند كل بادهة   بدائع في القريض مرتجله
يصطاد في الشعر كل شاردة   من القوافي بفطنة عَجِله
فلا تقسه بغيره أدبا   وهل تقاس المعطار بالتفله

كم شاعر يدعى وليس له   من شعره غير منطق الحجله
إن أنت أنشدت شعره هزؤا   رجعت منه كآكل البصله
ورب شعر إذا لفظت به   من هجنة فيه تأنف السبله
الشعر معنى ألفاظه حسنت   فنسقت في بلاغة جمله
وكلما قصرت قوالبه   عن حسن معناه أوسعت خلله
حسن المعاني بلفظها شوه   كحسن حسناء ثوبها سمله

من ذاق في الشعر طعم معجزه   فاحمد الشاعر الذي أكله
أي مقام هيجاؤه احتدمت   بالشعر يوماً ولم يكن بطله
كان عزيزاً يأبى الهوان فما   قر عليه يوماً ولا قبله

معروف الرصافي

القصص

من أساطير الإغريق

هيرو ولياندر

المأساة الغرامية المؤلمة

للأستاذ دريني خشبة

أرسلوها الى الدير ، طفلةً بريئةَ النفس ، طاهرةَ القلب ، بَسَّامةَ الثغر ، وضَّاحةَ الجبين ؛ كلما وضعت إبهاماً فى فمها تمصه ، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودَعَتُها

ونَذَروها لڤينوس ، فكانت ربة الحب تنسَرق فى القمراء الصافية لترعى طفلتَها ، ولتنفُثَ فيها من رُقى السحر ما تُمدُّها به لمستقبل غرامى مليء . وكان الكهنة يتفرسون فى شفتىْ هذه الوديعة الصغيرة ألغازاً لا يدركون لها كنها ، وأسراراً لا يفقهون لها معنى ، إلا كُنْه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة ، وإلا معنى القُبَل الناضجة يختلسونها كلما افترتا عن ابتسامة ، أو انفرجتا لِدَغْدَغةٍ أو تخميش

وشبت هيرو

وتفتح الورد فى خديها الناعمين ، واستيقظ النرجس فى عينيها الناعستين ، وضحكت ڤينوس فى شفتيها الحمراوين ، ونبت الخَمَلُ الحريرى يُطَرِّىْ صِباها الغض ، وشبابها الفينان !

وعُيِّنَتْ راهبةً لڤينوس فى سِيسْتوس ، المدينة الخالدة ، التى تربض على شاطئْ الهلسبنت(1) الأوربى ، قبالة أبيدوس ، مدينة الأحلام ، على الشاطئْ الأسيوى

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدى الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب ، فى برجٍ مشيدٍ مشرف على البحر فى قصر أبيها ، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها فى المدينة الكبيرة ، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الأهلين كما يتحدث الشذى عن وردِه ، والأرَج عن رنده ، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم ، وهُتافَ كل لسان

وسمع لِيانْدَرْ ، فتى أبيدوس وأشجع شبابها ، والذائد عنها فى كل حومة ، بهيرو الراهبة ، فعجب أن تكون حقيقةً كما يصفها الناس ، وحسب أن المبالغة هى التى نفخت فى شهرة هيرو ، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها ، وصرف ذهنه الشاب الفتىّ عن هذه الطوبى التى سلبت ألباب الفتيان ، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ فى نسيانها أو تناسيها ، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، فلقد كانت أذن ليانْدر عاشقةً وامقة ، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة ، وما برح يعرض عنها ولا يصغى لها ، حتى أعلن فى سيستوس عن حفل ضخم يقام فى هيكلها تكريماً لڤينوس وتقديساً ، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة فى الاحتفال بربة الجمال والحب ، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب !

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطئْ الأسيوى فى أبيدوس وحتى سمع به ليانْدر ، فابتسم ، وشعر فى سويدائه بأول قبس من نار الحب ، فألهب إحساسه وأشعل قلبه ، وملأ أضالعه شوقاً الى هيرو وحناناً

واعتزم المشاركة فى الاحتفال ، لا تقديساً لڤينوس ، ولكن لينظر الى الراهبة الحبيبة التى ملأت خياله ، وأصبحت مثله الأعلى الذى ينجذب دائماً إليه ، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة ، خاضعاً للسحر المطوى العميق

وإذ كان اليوم المنشود ، ارتدى الفتى أبهى ملابسه ، وانطلق يحدث نفسه أمانى الحب ، ويتغنى أغرودة الجمال ، وظل يحلم فى طريقه الى سيستوس بهذا الأمل اللمّاح ، الذى يشبه

(1) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف

فى تحجبه فى ثنايا المستقبل ، قمر ليـلة مكفهرة قمطرير ، ما يفتأ يتخايل فى تضاعيف السحب !

وعبر الهلسپنت فى زورق أبيض جميل ، مخر ما بين العُدوتين فى ساعة كانت فى فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب !

وقصد الى الهيكل ، وطفق يدافع الجماعات ، ويزاحم الجماهير ، حتى كان بين يدى هيرو

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمى الراهبة الصغيرة التى استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين ، مشرقة مُونقة ، كأنها زنبقة ، ملتفعة بُردها الحريرى الأبيض ، متكئة بذراعها اللدنة الجميلة على سـنادة المنصة ، مقابلة عينيها الدعجاوين فى الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات . . .

وكانت ڤينوس قد أقبلت من مملكة الأولمپ تشهد المهرجان الحاشد ، وتُشبع خُيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها ، المترنم بعبادتها ؛ وكان معها أبناؤها الغُر الميامين ، وفيهم كيوپيد



ڤينوس وكيوپيد وعطارد

وهرمونيا ، فاختبأوا فى أبراج الهيكل ، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون

وأرسلت ڤينوس عينها الفاحصة فى الملأ ، فرأت لياندر العاشق يرنو الى هيرو الراهبة ، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاما ؛ ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين لا تكاد تعيره نظرة ، ولا تمنحه التفاتة ، وهو مع ذاك مشرئب اليها ، ينظر نظرات كلها عبادة ، وعيناه مغرورقتان بدموع تكاد تنهمر

وتحرك حنان الحب فى فؤاد ربة الحب ، وأقسمت لتعاونن فى هذا المشروع الغرامى العظيم ! !

وذلك أن ڤينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط ، بل كان يثلجها ويملؤها غبطة أن ترى إلى عبرات المحبين ، وتسمع إلى رنين القُبل فى شِفاه العاشقين ؛ فأشارت إلى ولدها كيوپيد — رب الحب ، وصاحب السهام الذهبية والقوس ذات الوتر المُسرد — فأقبل عندها ، وألقت إليه أوامرها . . .

فوتر كيوپيد قوسـه ، وتخير واحداً من سهامه ، وانتهز فرصة من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى لياندر ، وأرسل إلى قلبها السهم الذى يحمل رسالة الحب ، فدخله غير مستأذن ، وملأه لوعة وصبابة . . . وجُنت للحظتها بالفتى . . .

وتخير كيوپيد سهماً آخر ، وأرسله هدية حارة ، دامية ، إلى فؤاد لياندر . وما كاد يستقر فيه ، حتى أحس الفتى أنه لم يعُد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد ، بل هو قد صار طيفاً نورانياً ؛ وأحس مع ذاك بحب غامر لم يكن له به عهد من قبل ، جعله يفنى فناء تاماً فى هيرو الراهبة ، التى نظر فألفاها تلتهمه هى الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً ! ! . . .

لله يا حب ما أجملك ، وما أبر ڤينوس بعبادك ! . . .

ودلف لياندر نحو المنصة ، وتمتم بكلمات خافتة ، (كأنما هى بَثُّ الورد للمطر !) يفهمها المحبون وحدهم ، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون ؛ فعلمت هيرو أن حبيبها يُقرئها حبه ، ويسرُّها هيامه ، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة ، ويعبدها خلاله على انفراد

وارتبكت هيرو ، وتصارع فى نفسها الخوف والحب ؛ الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبـة ڤينوس تصبو ، وبذلك يهوى احترامها إلى حضيض السخرية ، والحب الذى تكتمه فى صميمها للياندر ، والذى أثاره فيها سهم كيوپيد ، ولم تر إلا أن

تنهر العاشق الملح لينصرف ، ولكنه ما يزداد إلا تعلقاً بها ، وتشبثاً بما طلب اليها ، ورجاها فيه ، وتكون هيرو قد بلغت حالة بين الهيام والاشفاق لا تحتمل ، فتهمس اليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس ؛ فاذا انصرفوا ، خلت إليه ، وحدثته حديثاً موشى بالورد ، مبللاً بدموع الحب ، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى . وتذكر له أن اتصالها سيظل حباً في حب ، وبكاء في بكاء ، ولوعة في إثر لوعة ، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة : « لأني راهبة كما تعلم ، وأنا خادمة هذا الهيكل الفينوسي المقدس ، وسأظل عذراء أبد الدهر ، فلن ينتهى حبنا إلى هذا الزواج الذي أوثره وأشتهاه . فاذا كان الغسق يا حبيبي ، وتألق النجم في كبد السماء يردد أناتنا ، فاقصد إلى شاطىء البحر عند أبيدوس ، واخلع ملابسك ، ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك إشارة من مصباحي ، حيث أكون في برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس . فاذا وصلت ، وستصل سالماً في رعاية ڤينوس ، فهلم إلى في البرج نلتذ آلام الحب ، ونتغن أشجان الهوى ، واضعة رأسي على صدرك أو واضعاً رأسك على صدري ، شاكين إلى الآلهة ما بنا من برح حتى يطلع الفجر فنفترق ، وتعود أدراجك إلى الشاطىء الأسيوي سابحاً ، فاذا كان غد ، عدت إلى لأفنى فيك وأغمرك بالقبل ، ولأقرأ في نفسك ، وتقرأ في نفسي ، كتاب الحب وآي الطهر ... وبوركت ڤينوس ! »

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر في صلتها الغرامية بلياندر ، لأن شطئان الهلسبنت كانت حرماً على السفائن والزوارق وسائر الجواري بعد ساعة من غروب الشمس ، فلو قد ركب زورقاً وعبر به البوغاز ، لعرض نفسه لأخطار جسام من بينها عقوبة الاعدام دون محاكمة ! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو

« معبودتي ! سأخوض العباب في سبيلك »
« وأطوى بحار الجحيم لو أنها تحجزني عنك »
« فلا الموج جياشاً باللهب ، ولا الأعماق تقذف بالحمم »
« ولا الفزع الأكبر في الأرض أو في السماء ؛ لاهذا ولا »
« ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتي ! [1] »

***

فلما كان غد ، وتوارت الشمس بالحجاب ، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه ، يمم لياندر شطر البحر ، ووقف فوق رمال الشاطىء كأنه يعدها ، ولبث يرقب البرج على العدوة الأخرى ، وفي قلبه أمل مضطرب ، وفي نفسه قلق مستمر ، وملء يديه منى تملأ العالم بأسره !

وظل يذرع الشاطىء جيئة وذهوباً ، وهو حين يروح أو حين ينثني ، يحملق في البرج المشيد لا تريم عيناه عنه . وكانت الرياح تدمدم في جنبات الآكام الممتدة على الساحلين ، والموج يزخر في غيران طوروس الشامخة ، والبحر يقذف سراطينه على الكثبان البعيدة النائية ، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء في خضم السماء . . .

وفجأة لمح لياندر بصيص النور في كوى البرج الشاهق ، فانفلت من ثيابه كأن الشماعة تجذبه ، ولم يثنه أن يمزق هذا الكم ويشق ذاك الجيب ، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك ؛ ثم ينقذف في الماء ويأخذ في سباحته ، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء ، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين ، وهو في أعماق القرار يؤانس التريتون ، ويجالس الأوسيانيد[1] ! !

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . . .

وما برح يصارع البحر والبحر يصرعه ، وما برح يتقدم الى أمام ويسحبه التيار الى وراء ، وكلما خانته قواه نظر الى البرج يتزود من بدره قوة ، ومن القبل الحارة التي تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً !

وبلغ الشاطىء . . .

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب ، والمنية المرتجاة ، فهرعت اليه واستقرت في حضنه ، ولبثت تتسمع الى دقات قلبه الواجف الذي يخفق لأول مرة بموسيقى الحب ! . . . .

« وامتد فم الفراشة المرتجف ، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذي تفتحت عنه جلنارة الحب[2] »

وتمزقت السحب وتكشفت السماء ، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان ، ويأخذان في لذة الهوى الطاهر ، ونعيم الحب البريء . . . . .

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . .

ونسمت في الأفق الشرقي أنفاس الفجر ، فنهض الحبيبان

(١) من أدوين أرنولد

(١) التريتون فتيان البحر ، والأوسيانيد عرائس المحيطات (العدد السابق) (٢) من لورد بيرون

يودع أحدهما الآخر ، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات ! !

وفصل لياندر ، وأطلت هيرو من الكوة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه ، والزبد يلبسه ويخلعه . .

وفينوس تنظر وتلهو . . .

* * *

وأشرقت الشمس وتوارت ، وأقبل الليل وتنفس الفجر ؛ وعصفت الريح أو هبت رُخاءً ، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب . . . واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض ، فكان يطويه إلى مُنية نفسه وهُويّة قلبه فى كل موعد منتظر ، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء ، وكأنه يمتطى من ظهور الموج الصافنات الجياد . . .

وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار ، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق ، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه ، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها ، وتعلقت به ، وراحت تغمره بالقبل متوسلة ضارعة ، ترجو منه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته فى هذا اليم المصطخب ، وهى تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم ، حتى تسكن العاصفة ، وينام الماء . . .

وثارت النخوة فى نفس لياندر ، وشاعت الكبرياء فى جسمه القوى المفتول ، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى ، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة فى يديه الجبارتين ، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها ؛ ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين ، وهرع إلى البحر نخوض فيه ، ملتفتاً بين برهة وأخرى محيياً البدر الصغير المشرف عليه من الشاطئ . .

وفينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو . . . .

وأحس فى منتصف الطريق برعشة وإعياء ، ولكنه كان يهتف باسم هيرو مرة ، وباسم فينوس أخرى ، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية . . . . ورثت لحاله ربة الحب ، فنفخت فى ذراعيه المجهودتين حتى وصل إلى شاطئ ابيدوس مهدوداً محطماً . . . وتهالك على نفسه ، فوصل الى منزله ، وأوى إلى فراشه ليحلم بالموت المحقق الذى نجا منه منذ ساعة . . .

* * *

وغابت الشمس ؛ ولكن العاصفة ما برحت تزداد شدة وعنفواناً ، والبرق ما فتىء يطوى السماء ، وكان كل شىء ينذر لياندر بسوء المنقلب ؛ ومع ذلك فقد نهض غير مستيئس ، وقصد إلى الهاسبنت فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التى يضطرب بها بطنه ، ثم لمح الضوء ينبعث من كُوَى الكوخ . . . . فخلع ملابسه ، وبدأ رحلته . . . .

وكانت فينوس لا تنظر ولا تلهو . . .

لأنها كانت عند حبيبها أدونيس [1] الراعى الجميل تستمتع به ، بعد إذ فضحها أبوللو فى حبيبها مارس [2]

ولم يَبْلُ لياندر من البحر مابلا هذه الليلة . . . فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين ، وتصدع ذراعيه ، وترتطم برأسه . . .

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصَّبِر قد ذاب فيه ؛ بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً فى فمه ، وعسلاً مصفى !

ولقد كان البَرَد يَنهَلُّ من السحب القاتمة ، والصقيع يتساقط كندف القطن الأبيض ، فيعلق بشعر لياندر ، وينسج فوقه قلنسوة — ولا نقول تاجاً ؟ . . — من برودة الموت . . .

وجاهد العاشق . . .

وسبّح باسم هيرو بين موج كالجبال ، وليل كله ظلمات . . . وأسفاه ! !

لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره ، ولكنه لم يرَ الشماعة تتألق كما عوّدته . . .

لقد أطفأتها الرياح الهوج فأطفأت فى قلبه بصيص الأمل . . واستولى عليه خور الفجر السابق ، ودهاه القنوط فى عضلاته ، فيئس منها جميعاً . . . وضاعف النكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو . . .

فغاص ! . . .

ولفظه اليم جثةً هامدة . . . ثم ابتلعه ثم لفظه . . .

ثم انتصف الليل ، وهيرو المشوقة حاملة مصباحَها الخافتَ ، بعد إذْ أشعلته ثانية ، ولكن الساعات تمضى . . . ولا يصل لياندر . . .

وتنفس الصبح ، فسارعت الراهبة الهيمانة إلى البحر ، وحملقت فى الماء . . . . فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج ، كأنه حنين الجسم إلى أحلام الروح . . .

وصعقت هيرو . . .

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

(١) سننشر أسطورته قريبا. (٢) العدد السابق

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة اليوزباشي الاديب احمد الطاهر

٢

قصة حب

سيمون وأيفيجينا

قال : سمعت من القصص شيئاً كثيراً وكان أحبها إلى نفسى قصة الحب التى ستسمعون . هى قصة تريكم ما للحب من قوة وبأس بالغين الغاية فى العجب ، موفيين على النهاية فى الغرابة

كان يسكن جزيرة قبرس فى الزمن الخالى رجل عظيم القدر بين الرجال ، واسع الثراء بين أصحاب المال ، وكان اسمه « استيبوس » ؛ غير أن الرجل لم يكن مكتمل الحظ من السعادة ، فقد كان له ابن طويل القامة وسيم الطلعة ، ولكنه ضعيف الادراك سقيم الفهم مطبق الغباء . ولم يكن فى وسع أبرع الأساتذة والمهذبين أن يوقظوا غفلته ، أو يصقلوا طبيعته ، أو يهذبوا غلظته ، فلم يجد الوالد بداً من أن يقصى هذا الفتى المنكود عن مرآه ، ويبعده عن موطنه . فأرسله إلى منزل له فى الريف يعيش فيه بين الاتباع والعبيد . ولقد كان الفتى أميلَ إلى طباع أولئك وأقرب : ففيه خشونتهم وجفاؤهم وغلظة طباعهم

— كان الفتى يوماً يمشى فى المزرعة وقد أسند عصاه إلى كتفيه ، واعتمد على طرفيها بذراعيه ، فالتى فتاة بارعة الجمال مستغرقة فى نوم عميق ، قد اطمأنت إلى الحشائش الخضراء فراشاً وثيراً ، ونام عند قدميها امرأتان وخادم . لم يكن لسيمون — وهذا اسم الفتى — عهد بوجوه النساء فاتكأ على عصاه ، وحدق ببصره فى وجه الفتاة ، أن كانت بارعة الجمال فى نومها ، ساحرة الحسن فى غمضها ، هاج مرآها من نفسه شعوراً وإحساساً لا عهد له بهما ولا بأقل منهما ، وكلما أمعن فى النظر ازداد هذا الشعور وأسرف عليه هذا الاحساس ، وإنهما ليغريانه باطالة الوقوف وانعام النظر فهو لا يريم ، وينفرج جفنا الفتاة عن عينين بقرأ فيهما هذا الغبى فى طلاقة وسهولة معانى الجمال ، ومن معانيه الحلاوة والرفق والبشر . ثم هذا فمها الصغير ينفرج عن كلمات يدرك الفتى الأبله ما صيغت فيه من جمال فى اللفظ وعذوبة فى الجرس :

— « لم ترمقنى هكذا ؟ أرجو أن تنصرف عنى . يفزعنى مرآك »

— قال الفتى : « لا أتنحى ، بل لا أستطيع »

ودار بينهما حوار انتهى عند الفتى فلم يغادرها حتى أبلغها دارها

ثم ارتد إلى أبيه وقد فهم اليوم معنى من أدق معانى الحياة ، ولم يكن قبل اليوم يفهم أن للحياة معنى . قال : « يا أبت إنى أود أن أحيا حياة الرجل المهذب ، ولقد برمت بحياة المتأبدين »

كان عجباً للوالد أن رأى ابنه يفكر ويصيب فى التفكير ، ويريد ويحسن الارادة ، ويتكلم ويجيد التعبير ، فى صوت رقيق ، ولفظ رفيق

وألبسه ثياباً تليق بقدر أسرته ومكانتها وبعث به إلى المعلمين والمهذبين فقضى بينهم أربعة أعوام كان الحب فيها قوام تهذيبه وعنصره المستساغ ، فما أوفى الفتى على نهاية الأعوام الأربعة حتى كان أكمل فتيان الجزيرة أدباً وأحسنهم خلقاً

وخطب الفتاة إلى أبيها وكانت تدعى « ايفيجينا » ولكن أباها اعتذر أن كانت الفتاة مخطوبة إلى الفتى « باسيموندياس » من أشرف أسر رودس وأعرقها مجداً وانهما على نجز الزفاف

وجم الفتى وضاق الكون فى عينيه ، وأصرها فى نفسه ليصحرن للفتاة بحبه ، وليشهدنها على هذا الحب وفعله فى نفسه ، وليطلعنها على ما خلق الحب منه من خلق جديد ، وما يستشرف اليه من سعادة ترفعه إلى مقام الآلهة وعظمتهم إذا نعم منها بالزواج ؟ . .

« إما أن تكون الفتاة لى أو أكون من الهالكين »

وسار إلى أترابه من الفتيان الأشراف الأوفياء ، وائتمر معهم على أن يصنعوا سفينة قد استكملت عدتها من آلات الحرب

ودارت بها الأرض ، وانطفأت فى عينيها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام ! فألقت بنفسها فى الأعماق

وما هى إلا لحظة ، حتى كان الحبيبان مُسَجَّيْين على سرير الماء مُلَفَّفين فى حرير الزبد ! ! (١)

دريني خشبة

(١) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها ، وذهب بنفسه إلى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز ، وتمنى لو غرق مثله هناك . . . فلا يفوت القارىء الاطلاع على تحفة بيرون فى ديوانه

والقتال ، وتربص بها للسفينة التي تقل الفتاة إلى رودس مع زوجها باسيموندس . فما أشرفت هذه عليها حتى رمى عليها مجدافاً ضمها إلى سفينته ، وكان أول من ألقى بنفسه بين أعدائه وساقهم إلى الحرب ورداً حتى ألقوا سلاحهم واستسلموا خاضعين . قال لهم الفتى : « ما قصدت إليكم أبغي سلابكم ولكن لأنال هذه الفتاة النبيلة التي أحبها حباً لا يعدله حب ولا يتطاول إليه محب . فان أسلمتموها إليّ ألقيت إليكم السلم ، ومالى عليكم سبيل ، وإلا فلن تجدوا عن الهلاك محيصاً »

فتقدمت إليه الفتاة وفي مآقيها دموع . قال : « لا تبكي يا فتاتي ، فلقد ساقني إليك حبي ومناكِ . ولن يعدل هذا الحب ما يسوقه إليك باسيموندس من أعز ما يساق إلى الأزواج » . وفصلت عن وجه الفتاة ابتسامة شقت طريقها إلى قلب الفتى من بين الدموع . وأخذ بيدها إلى سفينته واتخذ سبيله في البحر سَرَباً ، حتى أشرف على جزيرة كريت أن كان له فيها إخوان وخلان ، ولكن تنكرت له الأقدار ولم ينعم بهذا النصر طويلاً . فما أقبل الليل حتى أقبلت معه عاصفة نكباء ، ترسل حسباناً من السماء ، وطوحت بالسفينة بين شطي اليأس والرجاء ، حتى ألقت بها في أحضان خليج صغير ينفرج عنه جزء من ساحل رودس على مرمى قوس من مستقر السفينة الرودسية ، وما كادوا يستقرون حتى قدم باسيموندس في فئة من أصحابه وفي أيديهم السلاح وهاجوا الفتى سيمون ومن معه وساقوهم أسرى إلى قاضي القضاة في رودس

وحوكم الفتى على ما اقترف فحكم عليه قاضي القضاة بالسجن خالداً فيه أبداً وقيد إلى السجن ذليلاً حسيراً

هنا فتانا تبرح به الآلام ، وتمزق جلده الأغلال ، وهناك باسيموندس غارق في بحار الآمال ينعم بتحقيق المنى ، ويعد العدة لزفافه إلى ايفيجينا . ولنترك الخصمين الآن ، أحدهما يشقى بآلامه ، والآخر ينعم بآماله

وكان لباسيموندس أخ أصغر منه اسمه «هرمسداس» وكان يعلل النفس بالزواج من فتاة موفورة الحظ من الجمال اسمها «كاسندار» أغرم بحبها وأخذت بشغاف قلبه . وكان ينازعه في الحب قاضي القضاة الذي قضى على فتى هذه القصة أن يسجن أبداً . ولقد حسب الاخوان أن سينعمان بزفافهما إلى عروسيهما في ليلة واحدة ، وأعدا العدة في ثقة واطمئنان لهذا الغرض . ولكن قاضي القضاة لا يهدأ له بال ، ولا يزال يحتال للأمر من كل وجوهه

وقد عقد العزم صادقاً على أن يحظى بالفتاة دون هذا الفتى «هرمسداس» . ولكن كيف السبيل ؟ أيختطفها ؟ وهو قاضي القضاة ؟ هذه عزة منصبه ، وهذا شرف مكانته ، يأبيان عليه هذه الفعلة النكراء ، أم يقهر في نفسه سلطان الحب ويكظم الغيظ ويصبر على الكمد ؟ إن سلطان الحب لقوى ، وإن بأسه لشديد ، وإنه لغالب ، وانتهى به التفكير إلى حيث لم يعصمه الشرف المغلوب من سرف الهوى الغالب ، ومضى ينفذ عزمه باختطاف الفتاة

ولم يعوزه النصراء في هذه الفعلة الهوجاء ، إذ ظهر سيمون مرة أخرى على سرح القصة . وليس أيسر على القاضي من أن يصطنعه باخلاء سبيله وفك إساره لينال غرضه على ساعديه القويين فيختطف الفتاة ، وليس أحب من ذلك إلى نفس سيمون فهو سينال حريته المسلوبة — لاشك في ذلك ولا مراء — وهو سينتقم لنفسه بنفسه من قرنه العنيد وخصمه الناجز بفجيعة أخيه في محبوبته واختطافها من بين أحضانه

وجيء إلى قاضي القضاة بسيمون وأصدقائه فوضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وزودهم بالسلاح وآلات الكفاح وأخفاهم في مسكنه حتى تحين ساعة العمل

وأقبل يوم الزفاف : زفاف باسيموندس إلى ايفيجينا وزفاف هرمسداس إلى كاسندرا وأقبلت معه ساعة الانتقام وإشباع الشهوة : انتقام سيمون من باسيموندس خصمه ومزاحمه ، وإشباع شهوة قاضي القضاة من الفتك بهرمسداس مناوئه ومناجزه

وأحكم قاضي القضاة التدبير : فقسم أعوانه إلى فئات ثلاث : فئة اتخذت سبيلها إلى الشاطئ واجتسرت البحر بسفينة ، وثانية كمنت عند مسكن باسيموندس ، وثالثة كانت تحت إمرة سيمون وقاضي القضاة اندفعت إلى مقصورتي العريسين الأخوين فقتلتهما واختطفت الفتاتين وولت بهما الفرار

وكانت الفتاتان تبكيان ، ولكنه كان بكاء لا يدل على الأسى ولا على الحسرة فعيونهما كانت تنم عن رغبة ورضى

وسار الجماعة منتصرين مهللين إلى كريت وتزوج قاضي القضاة بفتاته كاسندرا ، وتزوج سيمون بمحبوبته ايفيجينا ، وأقبل عليهم أصحابهم وأوفياؤهم يهنئون

وعاد سيمون بفتاته المحبوبة إلى قبرص ، وحمل قاضي القضاة فتاته إلى رودس ، وعاشوا في نعيم ورخاء ، حتى أدركهم الفناء

« عن الانجليزية » البوزباشي أحمد الطاهر

البريد الأدبي

نابغة عربي

المرحوم حسن كامل الصباح



فى أول يوم من هذا الشهر احتفل فى بيروت باستقبال جثمان الشاب العالم العربى النابغ حسن كامل الصباح ، وقد علقته المنون بمدينة مالون بالولايات المتحدة يوم ٣١ مارس سنة ١٩٣٥ فى حادث طيارة كان قد اشتراها ليرحل بها إلى البلاد العربية فكان فقده خسارة للعلم والاختراع وفجيعة للعرب الذين يرجون بمثل هذا النبوغ البارع أن يثبتوا للناس أن حيويتهم لا تزال فاعلة ، وأن خصائصهم لا تزال كاملة ، وأن مكانهم من المدنية الحديثة لا بد أن يشغلوه :

ولد الفقيد بالنبطية من جبل عامل فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٤ من أسرة تمت بنسبها لابن الصباح أمير الكويت ، وشب مولعاً بالحساب والشعر والفلك ، فدرس الجبر والهندسة بنفسه وهو فى اليفاعة من سنه . ثم دخل المدرسة السلطانية ببيروت ثم الجامعة الأمريكية بها ولم يتم دراسته فيها لأنه دخل الجندية ونقل إلى الآستانة فعمل فى قسم اللاسلكى تحت قيادة ضابط ألمانى درس عليه الألمانية ، وكان قد درس من قبل الفرنسية والانكليزية ، وظل يتابع دروس الرياضة فى تلك اللغات حتى انتهت الحرب فعاد إلى دمشق وعين معلماً للرياضيات فى المدرسة السلطانية ، وفى عام ١٩٢١ تولى تدريس الحساب فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، ثم بدا له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة فالتحق بمؤسسة (ماساتشوستس) الفنية وهى من أرقى مدارس الهندسة فى العالم ، ثم انتقل إلى جامعة (الينويس) ، ثم خرج إلى الحياة العاملة فعين فى شركة الكهرباء العامة فى (سكسنكندى) نيويورك ، وهنالك أثمر نبوغه وأنتجت عبقريته ، فأخذ يدهش الفنيين بابتكاره وإبداعه ، فخصصت له الشركة مختبراً ومكتباً وجعلت تحت يده مهندسين يعملون بارادته وإرشاده ، وتوالت عليه — حين دوى ذكر اختراعاته فى المقامات العلمية والشركات الكهربائية — شهادات العلماء وتهانى العظماء كرئيس المؤسسة الكهربائية فى بوسطون ، والأستاذ كاستلو فرانش أستاذ الكهرباء فى جامعة ميلان ، والأستاذ موريس لبلان العالم الفرنسى الكبير ، والمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق ؛ وسجلت شركة الكهرباء العامة جدول اختراعاته فى دائرة السجلات فى وشنطون ، وقد بلغ ما سجل منها ثلاثة وأربعون اختراعاً انفقت الشركة فى تسجيلها مائة ألف ريال ، وأنفقت على اختراع واحد من تلك الاختراعات ربع مليون ريال ، وهو اختراع فى التلفزة يحول أشعة الشمس إلى نار وقوة كهربائية ، وكان يطمع بهذا الاختراع أن يسخر أشعة الشمس المحرقة فى الصحراء العربية لانارة المدن والقرى ، وفى سبيل ذلك اشترى الطيارة التى كانت من أسباب وفاته

ومن اختراعاته المسجلة :

١ — طريقة لضبط القوة الصادرة من المقوم الكهربائى رقم الباتنت ١٦٦٩٥٠٢

٢ — حوافظ وضوابط لحماية المقومات الكهربائية من الخط رقم الباتنت ١٧٧٦١٨٩

٣ — طريقة لمنع حدوث هزات عالية فى القوة الكهربائية فى المقومات الزئبقية ١٨١٧٣١٢

٤ — ملتقط حديث لمنع حدوث انفجار كهربائى منعكس

محول للعزائم الكهربائية العظيمة رقم الباتنت ١٨٥٢٢٠٥

٥ – جهاز للتلفزة يحول أشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة ١٧٤٩٦٢

٦ – جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور رقم الباتنت ١٦٩٤٦٦

٧ – جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي رقم الباتنت ١٧٠٦١٦٥ الخ . .

ومما ذكره مدير شركة جنرال الكتريك في رسالته الى والد الفقيد الجملة الآتية :

« لقد برهن الأستاذ كامل الصباح اثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين الرياضيين في البلاد الأمريكية ، وأن وفاته خسارة كبيرة لعالم الاختراع »

وقد صرح جهابذة الفن الكهربائي الذين كانوا يلقبونه باديسون الصغير أنه لو نسأ الله في أجله لعد من أعظم المخترعين

كتاب عن ستالين

ستالين طاغية روسيا السوفيتية من أعظم وأغمض الشخصيات المعاصرة ، إن لم يكن أعظمها وأغمضها جميعاً ؛ فهو يمثل في شخصه أمة عظيمة وجيلا بأسره ، ورسالة اجتماعية جديدة . وقد صدر أخيراً كتاب عن ستالين بقلم الكاتب الفرنسي هنري باربيس ، وهنري باربيس كاتب ثوري ، بل من زعماء كتاب الثورة الاشتراكية ، ومن أعرف الناس بشؤون روسيا السوفيتية وزعيمها ستالين ؛ وقد خلف ستالين منذ أكثر من عشرة أعوام لينين منشىء روسيا السوفيتية ، واستمر يقودها حتى ذلك الوقت ، ولكن شتان بين القائدين ، فان لينين ذهن غربي درس المركسية (الاشتراكية) كمبدأ وعقيدة ، وتلقاها في أجواء غربية ؛ ولكن ستالين أسيوي محض ، فهو من بلاد الكرج ، ولم يعرف الثورة ولا الاشتراكية قبل الحرب ، ثم ان لينين ذهن المبادىء والمنطق ؛ ولكن ستالين ذهن عملي خشن فقد تلقى تراث لينين وعمل على حمايته واستمراره بحماسة ؛ ولكنه لم ير بدا من مسايرة الظروف ؛ فارتد الى النظم « البورجوازية » (غير الاشتراكية) يأخذ منها ما يروق له وما يعتقد أنه معين له على توطيد النظم القائمة . وقد كان ستالين في حياة لينين يمثل الجانب العملي للتجربة الجديدة ، وكان لينين يعجب بآرائه العملية على رغم معارضتها المبادئه ؛ ولما توفي لينين واستأثر ستالين بالأمر ثارت بينه وبين أقران لينين وحملة تراثه أمثال تروتسكي وزينوفييف وغيرهما معركة شديدة ؛ ولم يستطع ستالين أن يبطش بهؤلاء الخصوم الذين ينمون عليه سياسته العملية بادىء بدء ، ولكنه استطاع بعد عامين أو ثلاثة أن يضع يده عليهم ، وأن يشتتهم ، وأن يباعد بينهم وبين الثورة

ويصف لنا مسيو باربيس هذه المراحل في كتابه ، ويدرس خلال شخصية ستالين تاريخ روسيا السوفيتية ، وأطوار الثورة الاشتراكية ؛ وهو يرى أن ستالين بعد لينين هو الشخصية التي تتمثل فيها روسيا السوفيتية ؛ ويذيل عنوان كتابه بهذه العبارة : « عالم جديد يدرس في شخص رجل »

جائزة الرينصانص

اختتم موسم الجوائز الأدبية الكبرى في فرنسا بتخصيص جائزة « الرينصانص » لمسيو فرنان فليريه الكاتب الشاعر النورماندي ؛ وفليريه من طبقة الكتاب والشعراء الكهول ، وأصله من نورماندي ، من ذلك الجيل الأدبي الخشن الذي يمتاز بقوة في أدبه ؛ وقد ظهر قبل الحرب بكتاب اشترك في وضعه مع الشاعر « الكولس » ولوي برسو ، عنوانه « جحيم المكتبة الوطنية » وفيه يدلل على اطلاع شاسع . بيد أنه مال إلى القريض بعد ذلك ، وأخرج عدة قصائد ومنظومات قوية ساذجة تدل على تأثره بروح وطنه . ثم عالج القصة بعد ذلك فكتب منها : « ثلاث أقاصيص تاريخية » ، « في عصر الحبيب » ، « الملاذ الأخير » ، « جيم كليك » . بيد أن أعظم قصصه هي « قصة السيدة راتون ، الفتاة الطروب » ، وهي قصة فتاة زلت ، صورت بقوة ومهارة . وعني فرنان فليريه أيضاً بالمسرح ، وكتب له ؛ فاشترك مع (روجيه ألار) في وضع «سلستين» و«مدرسة الأساتذة» ومع أمادو ليجا في إخراج « كارافاكا ، فنان ومصور » ، وغيرها من القطع المسرحية ؛ واشترك أيضاً مع لوي برسو في كتابة عدة قصص أخرى ؛ ونشر في مجلة « مركير ده فرانس » عدة فصول وصور نقدية قوية ؛ وقد روعي في منحه جائزة « الرينصانص » عمله الأدبي كله ، ولم يمنحوه إياها من أجل كتاب معين

الكتب

أبو بكر الصديق

تاليف الأستاذ على الطنطاوى

نشرته المكتبة العربية بدمشق فى ٣٦٠ صفحة من القطع المتوسط

الأستاذ على الطنطاوى ، أو الشيخ على الطنطاوى كما يحب أن يُدعى ، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة : ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة ، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة ، وشارك فى إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية فى سورية مشاركة منتجة ؛ فله فى قيادة الشباب محل ، وفى توجيه الآداب طريقة ، وفى سياسة الأصلاح مذهب ؛ وهو ونفر من صحابته يمثلون فى سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم ، وعقلية تنكر التجدد . وليس الأستاذ الطنطاوى مجهولاً لدى قراء الرسالة ، فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة فى الأدب والتاريخ والقصص ، ينقلها عن فكر خصب ، واطلاع واسع ، ومنطق سليم ، وإيمان صادق ، وعاطفة نبيلة

رغب اليه أصحاب المكتبة العربية بدمشق أن يكتب تاريخ الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فتوفر على قراءة مائة كتاب فى موضوعه بين مطبوع ومخطوط أثبت أسماءها فى ثَبَت المصادر ، ثم جمع منها أخبار هذا البطل العربى ، وعارض بعض هذه الأخبار ببعض ، ثم جمع ما صح عنده من الروايات الكثيرة وجمالها كالحديث الواحد منبهاً إلى مصدر كل رواية ودرجة كل حديث . وتلك هى الطريقة السلفية التى تعتمد على الحشد والرواية ، أكثر مما تعتمد على التحليل والرأى ، فهى تعطيك أسباباً من غير حكم ، ومادة من غير صورة ، وقد ركب الأستاذ هذه الطريقة الوعرة على قصد وعلم ، فهو يقول : « وكان علىّ أن أسلك فى هذا الكتاب سبيل الدراسة التحليلية فأصف الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية للعصر الذى عاش فيه أبو بكر رضى الله عنه والبيئة التى نشأ فيها ، وما كان لذلك من الأثر فيه ، وأدرس أخلاقه وسجاياه ، وأبحث العوامل التى عملت فى تكوينها ، وأبين أثر الاسلام فيها ، وأثرها فى التاريخ الاسلامى ، وما إلى ذلك من عناصر الدراسة التحليلية . ولكن « المكتبة العربية » ترى أن هذا الأسلوب لا يمثل إلا رأى صاحبه ، وأن الرأى قد يخطئ الحقيقة وقد يصيبها ، وهى لا تحب أن تخرج للناس (درساً) فيه الخطأ وفيه الصواب ، بل تاريخاً صحيح السند مضبوط الرواية . . . . . .

« وقد كرهت بادى الرأى هذا الأسلوب . . . فكيف أجوز أصعب الشقتين ، فأجمع المواد وألخصها وأنقحها وأسبكها وأؤلف بينها ، ثم أثبتها فى الكتاب كما هى فيأتى « آخر . . . » فيأخذها هينة لينة ، فينشئ منها كتاباً تحليلياً تكون فاتحته انتقاصى وذمى بأنى لم أنشئ منها كتاباً تحليلياً . . .

« ثم بدا لى فقلت لا بأس ، فانه مهما يكن للأسلوب التحليلى من المزايا ، ومهما يكن للأسلوب العربى من العيوب (عند بعضهم) فان الصحة ليست فى غير الأسلوب العربى ، وليس لأمة من الأمم ما للأمة العربية من الضبط فى الرواية والتحقيق فيها والتثبت منها ؛ ولا يدرى أكثر من نعرف من الشبان من أمر هذه الرواية شيئا ، بل انهم ليجهلونها مرة واحدة ، وينبزونها حماقة وجهلاً (بالكتب الصفراء) لما وضعوا فى نفوسهم من أن الخير لا يكون خيراً لذاته ، ولكن للطابع الغربى الذى يشترط أن يكون عليه . . . وأن الشر لا يكون شراً لذاته ، ولكن للسمة الشرقية التى يتسم بها . .. وذكرت أن اتباع الأسلوب العربى — على ما سيناله من لوم على اتباعه — خير لشبابنا (وهم جمهرة القراء) وأجدى عليهم ، وانه فى طوق كثير من الشبان أن يكتبوا التاريخ التحليلى لأبى بكر إذا وجدوا الصحيح من أخباره مجموعاً فى كتاب

واحد، ولكنه يعجز الكثير منهم أن يجمعوا هذه الروايات ويفحصوها ويرتبوها . . . »[1]

ولا ريب أن الأستاذ قد بلغ أقصى ما أراد فى الجهة التى اختارها أو اختارها له الناشر، فقد استوعب كتابه كل ما اتصل بحياة الخليفة المظيم من الآيات والأحاديث والأخبار فى سياق مطرد وترتيب محكم وأسلوب جذاب. ولكن من يقرأ تصدير الكتاب[2] ويقف على أسلوب الكاتب فى حسن التمليل، وصدق الوصف، وبراعة العرض، يتمنى لو أن الأستاذ كان قد وفق بين الطريقتين، فيجمع بين المزيتين، ويسلم من نقد القارئ المتعقب، واستغلال الكاتب الجحود

الشاطئ المجهول

نظم الشاعر سيد قطب

للأستاذ محمود الخفيف

فى ذهنى، عن شعراء الشباب عندنا فكرة عامة، تزداد وضوحاً، وأزداد بها تعلقاً كلما نشر أحدهم مجموعة شعره، ولقد أتيح لى أن أقرأ عدداً من تلك المجموعات فى الأيام الأخيرة، فزادتنى يقيناً بأن الشعر فى مصر يسير الآن لى غير قصد، أو بعبارة أخرى لم تنشأ بعد عندنا فى الشعر « مدرسة » لها لونها، ولها غايتها، ولها سبلها المختلفة التى تنتهى بها الى تلك الغاية. وعلة ذلك أن شعراءنا إلا أقلهم مقلدون، وقل أن تلمح لأحدهم أصالة أو تتبين له وجهة، وكأنى بالشاب منهم يتناول القلم والورق، ويجلس لينظم، لا لأن قلبه يخفق بمعنى يريد أن يفصح عنه، بل لأن شهوة النشر تملك زمامه، والرغبة فى المحاكاة تصرفه فى ذلك عن الصواب، ففى نفسه بقية مما قرأ ولم يحسن فهمه من المسائل، فهو يتطلع الى التجديد والغموض والرمز والبحث عن المجهول والتشاؤم، وما سوى ذلك من معان يرددها دون أن يدرى كنهها أو المقصود منها، وليت شعرى، كيف نسمى انتاجا كهذا شعراً؟ وهل كان الشعر إلا الاحساس القوى ثم الافصاح عنه فى صورة تلائم الفن وترضى الذوق؟

وانك لتلتمس الدليل على ما أقول فى هذا الديوان المسمى بالشاطئ المجهول، فانى على الرغم من عثورى فيه على بعض قطع أبهجتني قراءتها، قد عجزت تماماً عن استجلاء ما يريد الشاعر بما جاء فى قسمه الأول الذى من أجله سماه بهذا الاسم

بيد أنى أحب أن أبدأ الكلام عن هذا الديوان من الناحية الشكلية، فقد استوقفتنى فيه ظاهرة أمضتني بقدر ما تولانى منها الدهش، ذلك أن الشاعر « سيد قطب » قد مهد لديوانه بمقدمة نقدية بقلم الناقد « سيد قطب »، وراح فى هذه المقدمة يتمدح نفسه، ويطنب فى هذا المدح فى صورة يعرونى لمجرد الاشارة اليها كثير من الخجل والحياء! ففى الديوان نظريات علمية وفلسفية، والشاعر ملم بها، والشاعر متصل بالعوالم المجهولة، تربط قواه الروحية بالوحدة الكونية الكبرى، وللشاعر احساس متيقظ بالزمن ومروره، ويملأ الشغف بكشف المجهول والحديث عن السر حيزاً كبيراً من ديوانه، والشاعر فى هذا الديوان يقف موقف المصور فى كثير من القصائد، وفى الديوان ظاهرة تستحق التسجيل، ذلك أن لوناً من ألوان الموسيقى يتفشى فيه كله، كذلك تبدو فى هذا الديوان صورة واضحة للتعبير الدقيق المصور للأفكار الى ما سوى ذلك مما أستحى لذكره من عبارات المدح والاطراء: وتالله لقد ترددت كثيراً أن أصدق أن الشاعر والناقد شخص واحد، وأكتفى أن أقول له فى احترام: إن مثل هذا إن جاز فى شىء فهو لا يجوز فى الأدب وعلى الأخص فى الشعر

وبعد فهل رأيت فى الديوان ما يتفق مع هذه المقدمة؟ الحق أنى إذا أردت الانصاف مضطر إلى أن أخالفه فى كثير مما قال بل فى معظمه! فالجزء الأول من ديوانه المسمى « ظلال ورموز » عبارة عن سلسلة من الأفكار الغامضة يشملها جميعاً ذلك التعبير الذى شغف بتكراره الشاعر وهو « الوجوم الكئيب » فتلك الكآبة تخيم على معظم قصائده وعلى الأخص « الشعاع الخابى » و « خراب » و « فى الصحراء » حيث « يطل الليل كالشيخ الكئيب » و « فى خريف الحياة »، و « غريب ». وليتنا نخرج بشىء من هذه الكآبة أو نتبين فيها شيئاً من فلسفة الحياة جديراً حقاً بهذا الاسم، ولست أدرى لم اضطلع الشاعر هنا ببعض الموضوعات « كالانسان الأخير » و « الشاعر فى وادى الموت »،

(١) مقدمة الكتاب (٢) نشرناه (بالرسالة) فى عدد سابق

وهو لم يخرج منها بطائل ، بله العجز عن التصور والتعبير فى مثل هذه المواقف الغريبة !

أما بقية ديوانه فيشتمل على بعض قصائد ريفية ، وقصائد غزلية ، وقصائد وطنية ، هى فى الجملة جيدة ، تحس أنها صادرة حقاً عن القلب ، فليس فيها من التكلف والتعمل والتقليد مثل ما فى سابقتها ؛ ولقد أعجبتني بنوع خاص قصـــائده « توارد خواطر » و « سر انتصار الحياة » و « المعجزة » و « الليلات المبعوثة » وطربت لها كثيراً . ولو نظر الشاعر أو الناقد سيد قطب مىي نظرة حق لفهم السر فى نجاحه فى تلك القصائد التى يستحق من أجلها أطيب الثناء ، ولولا هنات فى بعض تعبيراته لعدت هذه من عيون الشعر

والشاعر فى قصائده الحديثة أقوى على التعبير وأسلس عبارة منه فى قصائده القديمة ، ولقد لاحظت عليه أنه كجمهرة شعراء الشباب مغرم ببعض الصور الغريبة ، لا يتحرج فى كثير من تعبيراته ، ولا يتوخى فيها البلاغة والسير على مألوف التشبيه والاستعارة ، وإلا فكيف يتفق مع الذوق مثل قوله « يدوى حوله صمت الفناء » والكون « مفقود القطين » و « الهول الواجم » و « الرعب الحائم » و « الفناء الجاثم » و « ركام الفناء » و « شخوص الوهم » و « الحياء الوديع » و « الخشوع الوقور » و « العيلم المسجور » و « الصرخة المتلوية » و « الصمت فى ظل الوجوم » و « وقف الكون شاخصاً فى سكون » و « الذهول الشريد » و « القنوط العقيم » و « الدلال الشرود » و « الرشاد الرزين » و « الفتور الشغوف » وغير ذلك من الصور الذهنية الغريبة وهى مع الأسف كثيرة فى الديوان

هذا إلى أنه قليل العناية بانتقاء اللفظ وتجويد القوافى ، وأنا على يقين بأنى حين أصارحه بهذا أحسن اليه ؛ فواجبنا جميعاً أن نتضافر على رفع مستوى الشعر بعد أن نحدده ونتبين وجهته ، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا توخينا الصراحة والصـــدق والاخلاص فى كل ما نقول

الخفيف